إميل خليل بيدس

# الجبناء

## وقصص أخرى

## للمؤلف

| | |
|---|---|
| خطوات الحياة ( قهقهة الباطل ) | جملة اقاصيص من صميم الحياة |
| حلود ومرّ | مجموعة اقاصيص |
| مختارات من قصص موباسان | ٢٤ قصة من اروع ما جادت به قريحة القصصي الفذّ جي دي موباسان |
| انا القضاء ( سلسلة الاهوال ١ ) | مغامرة بوليسية غرامية |
| مسدسي سريع ( سلسلة الاهوال ٢ ) | مغامرة بوليسية غرامية |
| الجبناء وقصص أخرى | مجموعة اقاصيص |

---

## تحت الطبع

| | |
|---|---|
| مدموزيل دي موبان | طرفة الكاتب الفرنسي تيوفيل غوتيه |

# المقدمة

هذه مجموعة أخرى من القصص، اقدمها للقارىء العربي، بعد ان أخرجتهـــا إخراجاً حسناً، حتى تروق له فتلقى تأييده وتشجيعه وإقبـــاله

وتوخيت في هذه المجموعة الاخلاص التام في السرد والعرض — فلا لبس ولا تمويه، ولا عقدة تافهة تدور حولها الحوادث تترى يتابع بعضها بعضاً، بلا غاية ولا نهاية

كما توخيت اللفـــظ الجزل والبعد عن « الاسلوب الركيك » الذي يسمونه اليوم « السهل الصعب » ويضفون عليه من الثنـــاء والاطراء والتقريظ، ما يزري بلغتنا ويطعنها في صميم عزتها ومكانتها كافة عريقة فصيحة متينة

اما بصدد الحوادث، فهي من وحي الساعة، اقتبستها من صميم الحياة، وسكبتهـــا في بوتقة روائية، وألبستها الحلة التي تصلح لها وتجعل منها مادة خليقة بأن تقرأ ويعاد تلاوتها

ولقد حرصت على الايجاز، فلم أطنب فيما لا طائل فيه، ولم أسهب فيما لا جدوى منه، حتى يسلم القارئ، في عصر السرعة والتسابق هذا، من الضيق والبرم، ومن الضجر والسأم، إن هو اضطر الى نيل اللذة الادبية بشق النفس، واجتناء المتعة الفنية ببلوغ الروح التراقي !

اميل خليل بيدس

# الجبناء

واهاً لتلك المدينة الصغيرة الزاهرة ! من يظن انها كانت يوماً ما مسرحاً لأعظم فاجعة دامية عرفها تاريخ هذه البلاد ؟ من يظن انها شهدت مأساة مروعة زلزت كيانها، ودكت بنيـــانها، وطوحت بالقائم فيها، وأراقت الدماء الزكية، فخضبت تربتها بلونها القاني، وروت ثراها بفيضها الزاخر، حتى أصبحت كل دوحة فيهـــا وكل أيكة، تتحدث بما أهريق على جذعها في ذلك اليوم الاسود المشئوم من الدماء البريئة ؟

من يظن أن هذه المدينـة التي كانت منـذ اعوام ، قرية آمنة هادئة ساكنة جاثمة على سفح الجبل، مستسلمة للقدر، متسربلة لبوس الدعة والاطمئنان ، قد أضحت في مثل فتحة عين وغمضتهـا شعلة متلظية من نار وحلبة دامية لأعنف وارهب صراع بين الحق والبـاطل.. والاخلاص والغدر .. والاقدام والجبن ؟

فمن إحدى القنن المشرفة على المدينة ، تبدو الدور الجديدة التي

شيدت على اطلال تلك القرية المندرسة المنطمسة كما تبدو الرياض المخضرة والبساتين المخضلة التي اينعت فيها المزروعات بصورة لم يسبق لها مثيل، وكأنها تغذت بالدماء، واستمدت القوة والنشاط من الجثث والأشلاء !

وما أكثر ما قص المدلجون والمفلسون القصص المثيرة عن الاشباح الرهيبة، والاصداء التي تتجاوبها التلال والوهاد في تلك النواحي، وعن اصوات العويل والأنين التي تتصاعد كلما جن الليل، من صدور أولئك الذين قضى على حياتهم جبروت ابناء صهيون الجبناء وطغيانهم !

وما اكثر ما تحدث الركبان عن عصفات الطبيعة الهائجة المائجة، التي كانت تزجر زمجرتها الدموية المهولة، وكأنها تعلن عن غضبتها ونقمتها لما اصاب القرية من المحن والكوارث !

وما اكثر ما تصاعدت أعمدة الدخان الى عنان السماء، من المداخن المنتشرة بكثرة، وتراءى من خلال هذه السحب من الدخان المتكاثف وجه فاطمة الجميل التقاطيع، وبشرتها الناعمة البضة، ورأسها ذو الضفائر المذهبة المتهدلة على كتفيها ! ما اكثر ما تراءت وهي ساهمة الطرف شاردة اللب موزعة الاحساس، تصغي لوصف الفاجعة الفادحة التي ألمت بجيرانها في القرية التي تبعد مسافة فرسخين عن قريتها، فقوضت بنيانهم، وهتكت أستارهم، وازدرعت الموت والفناء بين ظهرانيهم.. وتنصت لتفاصيل الهجوم الغادر الغاشم الذي شنه متوحشو صهيون على القرية الآمنة، وعلى اصحابها المسالمين..

أطرق محدثي برأسه، وهو يمسح عبرة همعت، ويكتم زفرة

تفجرت. ثم استتلى يقول وهو يكاد يتميز من الغيظ:

ما تبلج فجر ذلك اليوم الـــكالح الجهم حتى دوى الرصاص، واندلعت النيران، وحجبت القرية عن العيـــان غمامة قـاتمة من الدخان، وصعدت الى عنان السماء ألسنة حمراء، يتطاير من ثناياها شرر متوهج، سرعـــان ما كانت وقدته تنطفيء وجمرته تخمد وبريقه يخبو

وقتلت عصابات صهيون في ذلك اليوم جميع من عثرت عليهم في القرية، فلم تبق على شيخ طـــاعن ولا امرأة واهنة ولا طفل لاغب.. ولم تنج المنـــازل من الويل الشامل، بل أكلتها النيران وأحالتها الى حطام وأنقاض..

وكانت فاطمة آنذاك تستمع لوصف الحادث مشدوهة مبهوتة فاغرة الفم. كانت في غلواء الشباب ونضـارة العمر. وكانت قوية العود، وضاءة الوجه، غضة الاهاب، نافرة الصدر، تربطها بالقرية المرزوءة المنكوبة أواصر صداقة مكينة وثيقة، ويشجهـــا بجميع اسرها، وخاصة بعلياء عشيرة الطفولة والصبا وشائج المحبة والاخلاص. وكانت متعلقة بحليم وليد علياء الوحيد، تحنو عليه وترأمه، كأنها أمه وكأنه قطعة منها.. وطفقت اثناء إنصاتها لرواة الانباء، تتخيل الطفل وهو ينفر من قاتليه مذعوراً وجلاً، ويلوذ بجسد أمه المثخن الطريح.. ثم تتخيله وهو فاقد الحياة جامد الحركة، فيتفطر قلبها أسى، ويتمزق فؤادها لوعة..

وما اغمض لهـا جفن في تلك الليلة، وما رقأ لهـا دمع. ولبثت تتقلب على فراشها حتى وافت الساعة على الثالثة. وكانت الذكريات

في غضون ذلك تلم بها وتدور في خلدها . فتذكرت الطفل رضيعاً ، وتذكرته وهو يزحف على ركبتيه ، وحينما شرع يدرج هدجان الشيوخ ، ثم عندما طفق يلاعبها ويداعبها ويهرب منها فيختفي ، ولا يلبث ان يظهر بغتة وهو يقرقر جذلا طروباً .. ورأته الآن سابحاً في بركة من الدماء .. فقفزت من فراشها كالمخبولة ، واندفعت تعدو بأقصى سرعتهـــا . وكانت عتمة الليـــل لا تزال مرخية السجوف ملقية الجران

ومضت ساعتان وهي تنحدر في يفاع وعر المسالك . وما عتمت ان واجهتها من الجانب الآخر هضبة مرتفعة رقيتهـا وهي اشد ما يكون تعباً وإعياء . ولما انتصبت على قمتها وارسلت طرفهـا يرود ما يترامى امامهـــا ، شاعت نظرات الحسرة والكآبة في عينيها ، وانبجست من مقلتيها دمعة حرى . ولكنها تمالكت نفسها وانعطفت الى الجهة الشمالية ، وهبطت في أخدود لولبي ضيق يفضي الى القرية

ولم تصـادف ما ينم عن وجود نسمة واحدة من الحياة . فكل شيء هادىء ، والحقول مقفرة موحشة ، والأنقاض سوداء فاحمة ، وأسراب الطـير تكتسح القرية . ومع ذلك ، وبالرغم ممـــا رأته وصادفته من نذر الفنـاء ، فقد كذبت ناظريها وخيل اليها انها في أضغاث ، وان هذه المشاهد ما هي إلا أحلام اليقظة يمليها عليها الوهم والخيال ..

وما برحت تتقدم حتى حاذت أول بيت من بيوت القرية ، وكانت آثار النـــار بادية بجلاء ووضوح على الابواب والنوافذ والجدران . وتوغلت في تقدمها وطفقت تجوس خلال الدور ، أو

خلال ما تبقى من الدور التي عمرت منذ ساعات بأهليها وأنعامها ، فوجف قلبها واقشعر جسدها وغامت عيناها ، وودت لو كان في طوقها ان تصرخ وتستغيث ، حتى يتجمع حولها اهل الارض قاطبة ليشهدوا بأم أعينهم قسوة الأم الخلق .. وجبن أسفل الخلق .. وبطش أثر الخلق ..

وصرّت على أسنانها وهي تستمطر لعنات السماء على صهيون وبني صهيون ، وسارت متجهة الى منزل صديقتها عليماء

وهبت عليها في تلك اللحظة التي مجت فيها الحياة وكل من فيها ، نسمة مفعمة برائحة النار والدم. فامتلأ صدرها برائحة الموت هذه ، واصابها الدوار ، وتراقصت المرئيات تلقاء ناظريها ، وترنحت وهوت على الارض فاقدة الوعي

ولم تدر كم من الوقت مرّ عليها وهي في غيبوبتها . إلا انها عندما تحاملت على نفسها ونهضت واقفة على قدميها ، أيقنت أن النهار ولّى وان الغسق ضرج الافق النائي بلونه الاحمر القاني. وعلقت تجيل طرفها فيما حولها ، فشاهدت لأول مرة تلك الاشلاء المبعثرة والهامات المشدوخة والاجساد الممزقة !

واطلقت ساقيها للريح ، حتى إذا ما دنت من بيت رفيقتها ، عجبت لبقائه سالماً دون سائر البيوت ، ولكنها أيقنت ان كل شيء قد انتهى بالنسبة لقاطنيه ، فهي لا تسمع حساً يحي فيها ميت الأمل ، وهي لا تبصر شيئاً يبعث في صدرها قبساً من رجاء . لقد انتهى الامر .. ووسم طابع الموت كل شيء بميسمه البغيض .. واعلنت الوحشيه المتجسمة عن نفسها بهذه الحطام والاطلال والاجسام ..

ودلفت الى الغرف فألفت محتوياتها محطمة مبعثرة . واقتربت من الحجرة التي كانت تجتمع فيها بحليم ، فلم تقو على الدخول ، بل استندت الى الحائـــط وهي خائرة النفس واجفة القـــلب جاحظة العينين

وغشيت الحجرة الضيقة بعد لأي وهي تتنفس الصعـداء من الضيق والاعياء .. وجمدت في مكانها ، فقد شعرت بحركة خافتة خلفها . واستدارت ببطء وخشية ، فلمحت الباب يتحرك . . فتقلصت عضلاتها وجمد الدم في عروقها . وتطلعت إليها في تلك الأثناء من وراء الباب عينان سوداوان متقرعتان ، ولم يلبث الطفل الملتاع المرتاع ان فزع اليها ودفن وجهه في حضنها ، واستخرط في البكاء . وهمست فاطمة وهي تضمه اليها برفق وحنان : « لا تبك يا حليم ، لا تبك ، فأنا هنا أحميك وابعد عنك السوء .. »

وقبل ان يغبس الليل ويشتد الظلام ، اخبرها الطفل وهو يرعد ، كيف اختبأ وراء الباب عندما دهم امه اثنان من الصهيونيين ، فاعتديا عليها اعتداء منكراً ! ثم أفرغا في رأسها الرصاص ومثلا بجسدها تمثيلاً بشعاً ! ولم يعتما ان سرقا ماخف حمله وغلا ثمنه ، واوقدا النار قبل ان يغادرا الدار . بيد ان النـــار أبت ان تشب لحسن حظه ، فخمدت من تلقاء نفسها وسلمت الدار ونجا الغلام !

وهجع الاثنان في تلك الليلة وسط الموت والفناء .. نامـــا والهلاك المنتشر يحوم حولهما ويخيم عليهما بجناحيه الثقيلين المريعين ، كما يخيم على الجثث الممزقـــة والسكون الحزين المتشح بعباءة سوداء متضرجة ...

وما ان تبلج الفجر ورنقت ذكاء وتسربت الى مخدع الهاجعين خيوطها الذهبية الدافئة ، حتى هبت فاطمة من رقادها ، فاطعمت الطفل قسماً من زادها وتبلغت هي بالباقي. ثم جعل الاثنان ينتظران قفول من تجنبهم الموت وأغفى عنهم الفوت..

وتصرم من النهار ساعات لم تر فاطمة خلالها شبح انسان . فطاوت نفسها شعاعاً واستحوذ عليها القلق والاضطراب ـ فماذا هي صانعة؟ هل تستطيع العودة بالطفل؟ هل يقوى الطفل على تحمل مشاق السير في مسالك الجبال الوعرة الوعثاء ؟ واستبد بها الخوف وألح عليها الوجل ، وتساءلت عن رجال الامن .. وعن الشرطة والجيش .. وكيف يترك الجبنـــاء وشأنهم يعيثون في الارض وينكلون بالخلق ؟ !

ولاح لها من بعيد شبح يقترب. وبدا وراءه شبح آخر .. ثم آخر .. فاغرورقت عيناها بدموع الشكر، وسبحت الله وشكرته وأثنت عليه

واقترب الوافدون من القرية المحترقة ، فهرعت فاطمة والطفل لملاقاتهم. وكانوا عشرة رجال.. كانوا عشرة غادروا القرية منذ أيام وقلوبهم عامرة بالسعادة والامل ، ورجعوا الآن، رجعوا وهم أبعد ما يكون عن السعادة والامل.. رجعوا ليواروا احبابهم الثرى.. رجعوا ليلقوا نظرة اخيرة على من محضوهم الحب وضموا لهم في شغافهم أسمى آيات الوفاء والولاء..

وصرخ الطفل : « أبتاه.. » وهتف جاسر وهو يشرق بدمعه : « إبناه .. » وضحك الرجل وبكى.. وتطلع الى فاطمة فأطرقت

برأسها وأغضت من طرفها . ففهم كل شيء .. وظللت عينيه سحابة حزن مكفهرة ، وشعر بالحزن والاسى ، وأوشك على الانهيار ، بيد أنه تجلد واشار على مرافقيه فشرعوا يجمعون الجثث ويلحدونها بطن الثرى ، دون ان ينبس أحدهم ببنت شفة ، وكأنهم آلات تعمل وتتحرك ولا تسمع ولا تبصر ولا تشعر ولا تحس.. وكأن هذه الجثث غريبة عنهم ، وكأنهم لم يألفوها أو يحبوها او يعيشوا معها تحت سقف واحد.. !

وبات الجميع في بيت جاسر ، فلم تهجع لأحدهم عين ، ولم يكتحل بالكرى جفن.. فالكل في شغل بأفكاره المدلهمة ، يقارن بين أمسه ويومه ، وبين بياض ماضيه وسواد حاضره ، وبين وافر خيره ونضوب حظه ، وبين اشراق سعده وزوال خفضه...

❁

ما راعهم في اليوم التالي إلا دوي الأعيرة النارية وانصباب الهم عليهم من كل جانب . فهبوا يحصنون النوافـــذ والابواب ويكدسون وراءها الامتعة والاثاث . فقد صبحهم العـدو للمرة الثانية لينكل بمن آب منهم ومن قفل

وتأهب الرجال العشرة لرد العدوان ، وقد وطدوا العزم على الاستماتة في الدفاع . وما هي الا ساعة حتى بدأ الهجوم ، وجعل المغيرون يحملون على الدار من كافة الجهات . واستعر القتال وحمي وطيس المعركة وأخذت شراذم صغيرة من المهاجمين تكر على الدار لاقتحامها ، الا أنها كانت ترد على اعقابها فاشلة خاسرة مخلفة وراءها من أصيب او جندل من افرادها

وتعاقبت الساعات وئيدة وانية ، غير ان مجيء الليل بعتمته

قضى على عنفوان المعركة ، فهدأت الضجة وسكن الدوي واخلد الطرفان للراحة والاستجمام

واستؤنف القتال من جديد مع طلوع النهار ، وأيقن جاسر ورفاقه بأنهم لن يعتموا ان يقعوا تحت رحمة اعدائهم.. ولكنهم لم يهنوا أو يضعفوا ، واستمروا يكافحون وينافحون بعزيمة لا تخور وهمة لا تفتر ...

وتذكر جابر برميلاً كان قد ملأه بالرصاص وأخفاه في بناء البلدية القريب احتساباً للطوارىء . وكان المكان الذي أخفى فيه البرميل لا يزال قائماً . فكيف السبيل اليه؟ وأنى لطالبه ان ينجو من الرصاص المنهمر كالمطر من جميع الجهات ؟

وفكرت فاطمة فيما ناجى به جاسر نفسه اثناء قيامها بحشو بنادق المقاتلين وضمد جراحهم ومناولتهم جرعات من المـــاء . واستوعبت ما افضى به لأحد الرجال ، فأيقنت انه لن يدع احداً دونه يتجشم مثل هذه المجازفة الرهيبة

وجعلت تنظر إليه وهو يصلي الاعداء بناره الحامية الصائبة . وتناهى إليها صوته وهو يبث في قلوب رجاله روح الشجاعة والثقة ، فأيقنت أنه الدعامة التي يستند عليها هذا الدفاع ، وانه متى انهار ، انهار معه الجميع

وتذكرت افعاله واعماله ، وتذكرت عجرفتـــه ، ولكنها رأت الآن انها كانت عجرفة مفتعلة أو ستاراً يخفي وراءه قلباً كبيراً واحساساً نبيلا وشهامة وجرأة قل نظيرهما ...

ولاحت منها التفاتة إلى وعاء الذخيرة ، فمثلت في ذهنها خيالات

الشر ، وأفلتت من بين شفتيها آهة حبيسة عبرت عما يجيش في صدرها من ألم وخوف — انها السبب .. انها السبب في هذه الجزرة الوشيكة .. فلولاها لما رجع اكثر هؤلاء الرجال .. ولولاها لما قفل العدو راجعاً ليضيف الى قتلى امس الاول عدداً آخر !

وفاض الحزن في قلبها وسولت لها نفسها أمراً . وانطلقت في استخفاء الى الباب الخارجي فأزالت الاثاث المتراكم وراءه ، ثم انسلت الى الخارج دون ان يشعر بها أحد

وجعلت تزحف على ركبتيها صوب دار البلدية ، وهي تنتظر ان تنصب عليها الحمم فتخمد انفاسها . ولكنها وصلت أخيراً من غير ان يفطن اليها الاعداء فدلفت داخلة ، وما هي الا لحظة حتى كان بوميل الرصاص بين ذراعيها ..

في تلك الفينة فقط أدركت سبب نجاتها ونجاحها في الوصول .. فقد وقع طرفها المذعور على وجه جهم كريه ، وعينين براقتين متوحشتين تقدحان شرراً وتحدجانها بسخرية لاذعة متهكمة .. فعلمت والكمد يحزّ في نفسها ان صاحب هذا الوجه اقتفى اثرها من حيث لا تدري ليقف على سرها ، وأنه سيوقع بها الآن لا محالة .. وفي مثل لمح البصر استدارت على عقبيها وهرولت راكضة تبغي الفرار بكنزها . ولكنه كان اسرع منها في الوصول الى الباب ، فحال بينها وبين الخروج ، ولم يلبث ان رمى بندقيته جانباً حتى يظهرها على مقدار احتقاره واستخفافه ، وانتضى مدية براقة طويلة النصل ..

وطرأت عليها فكرة ، وألمّ برأسها خاطر ، فتقهقرت من حيث

انت ، ثم أرخت البرميل الثقيل من يديها وتناولت عن الارض هراوة ضخمة ، واغارت بها عليه . فانفلت الذئب اليهودي بمهارة وزاغ زوغة بارعة ، الا ان الهراوة اصابت يده فارقت المدية من قبضته . فأن من الالم ، ثم لم يبطىء ان انقض عليهـــا فأمسكها بضفائرها وشرع يجرها ويجذبها الى المكان الذي وقعت فيه المدية وقاومته المسكينة بكل ما أوتيت من عزم وقوة . ولكن أنّى لها أن تعيقه عن غايته وهو طويل كالمارد ضخم كالوحش ؟ !

وانحنى قليلاً ومد يده الطليقة ليتناول بها المدية اللامعة .. ورأت فاطمة اصابعه تدنو شيئاً فشيئاً من السلاح ، فأيقنت ان حياتها اصبحت تعد بالثواني ..

ولمحت بغتة في خنصره خاتماً تعرفه ، فبحظت عيناهـــا وغلى مرجل غيظها ، وتأجم غضبها — فالخاتم لعلياء .. وقد طالما اعتزت به وحافظت عليه لأنه تقدمة من زوجها جاسر .. فهذا الرجل ولا غرو هو قاتلها .. وهو ولا جرم الجبان الفسل الذي يعتدي على النساء والاطفال ، ولا يتورع عن اقتراف أدنى الاعمال وابشع الجرائم ..

وتميزت من الغيظ ، واجتاحت مشاعرها موجة عاتية من الحقد والمقت لهذا الانسان القذر ولأبناء جلدته ، ولم تلبث أن تخلصت من قبضته وهي تزمجر ، واختطفت الهراوة الضخمة فكرت بها على الوغد .. وما اسرع ما كان رأسه نثاراً من لحم وعظم ودم .. وما اسرع ما كان دماغه فتاتاً ملتصقاً بالارض ..

ولم تضع الوقت سدى ، بل حملت البرميل وخرجت به تعدو .

واحست بالرصاص يلمع حولها، وشعرت به يمر قريباً من اذنيها.. بيدانها ما حفلت فذائف الحمام تسعى اليها من كل ناحية، بل استمرت تجري بحملها الثمين حتى وصلت آمنة سالمة الى المناضلين المستبسلين

وانحسر الجبناء بعد ساعة، فولوا الأدبار.. ووفد على القرية الهالكة من وفد من الاهل والخلان، وجاءت ام فاطمة وجاء ابوها

ولما حان ميعاد الرحيل وتأهبت فاطمة لتذهب، وقفت مطرقة في رهط من ذويها تودع اهل القرية الراجعين وهي محتضنة حليما ولا تكاد تطيق فراقه

واقبل عليها جاسر مودعاً، فشد على يدها وراح يحدق في عينيها، ثم قال بلهجة تشف عن طيبته وصراحته:

« مع السلامة يا فاطمة.. مع السلامة.. لن ننسى قط بطولتك الخارقة.. لن ننسى قلبك الكبير الذي لقننا درسا عظيما في التضحية والفداء.. انظري يا فاطمة الى حليم.. انه يذرف الدمع السخين.. فهو الآن بلا ام.. يتيم كسير القلب.. فما رأيك؟ ما رأيك؟ هل تصبحين له اماً؟! »

وحدقت فيه وهو يعرض عليها الزواج وتأملت أساريره فقرأت فيها عبارات الضراعة والتوسل.. وتحولت بناظريها الى الغلام، فرأته متعلقاً بها متشبثاً بثيابها.. فدهمتها موجة من الحزن والفرح ومن الألم والسعادة لم تلبث بعدها ان طأطأت هامتها علامة القبول والموافقة!!

# طبيبة تفقد رشدها



شعرت كأني ملكت الخافقين يوم بعلت بي . فقد تهت عجباً ونشيت روحاً طيبة وخيل الي أني اسعد مخلوق على وجه الارض

وكانت مي من اجمل الفتيات واكثرهن ادباً واغزرهن علماً . ولم يكن لها مثيل بين لداتها الا توءمها الحسناء شمس ، فقد نشأتا معاً وترعرعتا سوياً ونهلتا العلم في مدرسة واحدة . ومن جامعة واحدة نالت شمس اجازة الطب وحصلت مي على شهادة العالمية

فكان من الامور الطبيعية ان تلوذ مي بصديقتها الحميمة تلتمس منها معالجتها كلما انتابها ألم وعرض لهـــا عارض . واتفق في احد الايام ان اصابتها وعكة خفيفة فهرعت الى صديقتها الطبيبة لكي تبثها شجوها وتشكو لها أعراض علتها . فلما أقبلت راجعة بعد ساعة من الزمن أفزعني شحوب سحنتهـــا وتغير لونها وشرود بصرها . فسألتها وانا واجف القلب :

ــ مالي اراك منقبضة مضطربة يا مي ؟ أخبريني . . هل قالت

شمس ما أذاك .. آذاك ؟

فرنت الي بطرف مخضل ثم طأطأت رأسها وقالت :

— لا لم تقل شيئاً البتة ..

فقلت وانا اكاد أتميز من الكرب :

— ولكن مالي اراك حيرى تنكسين طرفك وتطرقين برأسك شأن من صدعه خطب وفدحته مصيبة ، ولا يشاء ان يبوح بما ألم به فعكر عليه صفو حياته ؟

فأجابت وهي تشرق بدمعها :

— انا متعبة قليلاً ، فلا تثقل علي ولا تبهظني بالحــاحك .. ثم أشاحت بوجهها ودلفت الى مخدع النوم واغلقت الباب دوني

لم اذق طعم الراحة في تلك الليلة المشؤومة ، فقد جفا النوم عيني وكحل بالسهاد جفني ، وما فتئت انقلب على الأريكة التي استلقيت عليها ابتغاء للنوم حتى تصرمت ساعات الليل وتبلج الفجر . فارتديت ثيابي وخففت الى مخدع النوم فألفيت الخادمة منهمكة بعملها فلما سألتها عن سيدتها انبأتني بأنهــا غادرت البيت مع اول خيط من خيوط الشمس .. فشخصت الى عملي وانا موزع البـال ممزع الفؤاد ، اقدح زناد الفكر فلا اجد علة لهذه القطيعة ولا اعثر على سبب لتحول زوجتي من حال الى حال ..

وعند عودتي في المساء كانت الدار خالية من مي ، فطارت نفسي شعاعاً واستحوذ علي الأسى وجلست انتظر رجوعهـا . فلما قارب الليـل انتصافه فتح الباب برفق ، ودخلت منه مي فاتجهت صوب مخدع النوم دون ان تلتفت الي او تعيرني انتبـاهاً . ورددت عليها

الباب كما فعلت في الليلة السابقة !

وهكذا قضيت ليلة اخرى في غرفة الاستقبال وكانت اسوأ من سابقتها ، فقد طوفت بي الأشباح المرعبة ورأيت الرؤى المفزعة ، وكنت لا أنفك اشاهد هوة سحيقة مريعة تتلوى في جوفها ثعابين هائلة ذات اعين رهيبة متأججة ، كلما التفتت نحوي انطلقت منها اعمدة من اللهب المضطرم المستعر !

ومضت الايام تتلو بعضها بعضاً وهي مسرفة في إيلامي موغلة في تعذيبي ، تغادر البيت باكراً ولا تؤوب راجعة الا وقد ذهب من الليل اكثره !

ضقت بالامر ذرعاً واختمر في ذهني ان افصل بين الحق والباطل مهما تكن النتائج .. فما كادت تغشى البيت في الساعة الثالثة من تلك الليلة حتى تصديت لها وشرعت اخاطبها بصوت مختنق واقول :

ـ رويدك يامي .. كفي عن اللعب بالنار لئلا تحرقنا النار .. وامتنعي عن الحفر تحت البنيان لئلا تنهار سعادة شيدناها سوياً ، ويتقوض مستقبل أقمنا صرحه معاً .. فكري فيما انت مقدمة عليه ، فكري قليلاً لتدركي خطأك وتعملي على اصلاح ما افسدت برعونتك وقلة تبصرك ..

فنظرت الي شزراً بمؤخرة عينيها ثم تولت عني وانكفأت الى مخدع النوم وهي تقول :

ـ اف لك يا اديب ! اتركني ! ابتعد عني !

فانتفض جسمي وارتعش ، وجمدت في مكاني ، وخيل الي اني نائم اختلطت علي الاحلام .. وان هذه السحب القاتمة الكثيفة التي

تلبدت في افق حياتي لن تتم ان تتقشع عن سماء صافية في اللحظة التي أصحو فيها من أضغاث احلامي . ولكنني لست بالنائم ولا بالحالم ، وهذا الذي ارى واسمع هو الحقيقة التي لا تدحض. أجل انها الحقيقة المرة .. انها اليأس بعد الرجاء ، وانها الفشل بعد الفوز ..

وبلغ من قلبي الحزن مبلغـــاً جعلني اتأوه من كبد حرى وانطرح على الأريكة وانتحب واهذي بكلام غير معقول .. فمن يعلم ? من يعلم ? لعلهـا عشقت علي واغرمت بسواي ? غير اني لا اصدق ان مي الطـــاهرة الذيل النبيلة الفؤاد تجترح هذه الخطيئة الكبرى

وتصرمت ايام اخرى لم ارها خلالها الا لماماً ولم اكلمها الا غراراً . حتى اذا حرج صدري وغلب صبري لم اجد مندوحة عن التفكير بالطلاق فهو اجدى علينا وانفع لنا

وصممت ذات ليلة ان أفضي اليها بذات نفسي ، فلما فتح الباب في الهزيع الاخير من الليل ورأيتها تدخل البيت بخطى ثقيلة وتجر نفسها جراً ، انشأت سورة غضبي وشعرت بالحزن والرثاء ، واخذت أتوسل اليها ان تشفق على نفسها فتبادر الى اطلاعي على مكنون صدرها — فانا زوجها وانا حبيبهـــا ومن احق مني بمشاركتها في سرائها وضرائها — ولكنها هزت رأسها وقالت بصوت مجروح متلعثم :

— ارحمني يا اديب .. اشفق على ضعفي .. فأنا لا احبك .. لا احبك ابداً .. بل انا ابغضك واستثقلك !

احسست الخبال والوبال وأخذت اقلب طرفي في أساريرها ، ولم البث ان اندفعت الى الخـــارج وانطلقت اجوب الشوارع المظلمة

وأهيم على وجهي في الاحياء المعتمة وانا كالمجنون.. ابكي واضحك وازفر واقهقه.. حتى اذا ما ولى الليل وانتشر ضوء الشمس وكأنه حبال مقبلة من كل صوب، سعيت الى منزل الدكتور فؤاد العالم النفساني المتخصص فأطلعته على ما نزل بي من النقم، ورجوته ان يزيح عن صدري هذا الضاغوط المريع، وافهمته بأن املي ورجائي قد تعلقا به، فهو مناط هذا الأمل ومعقد هذا الرجاء. فحينما تدبر الرجل كلامي هدأ من روعي واشار علي ان اصنع له مأدبة علي ان يجتمع فيها بي. ثم ناولني سفوفاً ابيض اللون لأدوفه خفية بشرابها..

فاتبعت مشورته وبكرت الى مي في اليوم التالي فرجوتها ان تلازم البيت لتشرف على اعداد الطعام لضيف عزيز، كما ألححت عليها ان تشاركنا طعامنا حتى لا يفطن الضيف لما يشوب علاقتنا من فتور وجفوة.

فقبلت على مضض وانداعت مكرهة بعد لأي. وعندما قدم الاخصائي جلست بيننا على الخوان وقد بان في وجهها التقطيب وكأنها تتجشم ما لا تطيق..

وعندما سنحت لي الفرصة دفت شرابها بالسفوف المنوم، فلما جرعت كأسها اصابها كسل وشرعت تتثاءب ولم تلبث ان استأذنت ومضت الى فراشها

وسرعان ما اخذتها سنة من النوم. فقمنا اليها نجمل الطبيب يحدق بجفنيها المسبلين ويحدد بصره في وجهها الشاحب الذي ضاعف الذبول من فتنته وسحره. ولما تم له ما اراد وأركن الى خضوعها

لأرادته ووقوعها تحت سيطرته ، أهاب بها بصوت حاد قائلاً :

ـ أصيخي يا مي ، اني آمرك ان تبيني ولا تخفي شيئاً . . ماذا حدا بك الى مجافاة زوجك وجعلك تقابلينه بالاعراض والصدود ؟

فأجابته وهي تتململ :

ـ لأنني لن احيا طويلاً ، فالموت يتربص بي الدوائر وهو قابا قوس او أدنى مني !

فقاطعها وهو يبادلني نظرات الدهش والاستغراب :

ـ وكيف عرفت انك سوف تلاقين حتفك عاجلاً ؟

قالت :

ـ عرفت ذلك من الدكتورة شمس فانها لم تخف عني ما يحدق بي ويهدد حياتي . فقد اكدت لي بأن قلبي وانٍ واني لن اعمر طويلاً . ولما اعربت لها عن رثائي لزوجي وخوفي عليه من ان يلفحه الحزن ويعييه اشد الاعياء ، اسدت الي النصح وأخبرتني بانه يخلق بي ان أهجره كي ينصرف عني ويسلاني ، فلا يشتد حزنه علي ان حمّ الأجل !

فقال الدكتور :

ـ اتحبين زوجك يا مي ام انك مشغولة عنه بسواه ؟

قالت :

ـ انني أمحضه اصدق الحب وأكنّ له في صدري اسمى آيات الاخلاص . وان إقدامي على هذه التضحية لهو الدليل القاطع على حبي وإخلاصي

فالتفت الي الدكتور مزهواً بانتصاره وقال وهو يربت على

ظهري :

ـ سقياً لزوجك يا صديقي ، وهنيئاً لك بهذه المرأة النـــادرة المثال .. وثق بأنها متمتعة بالصحة التـامة . . بيد ان هذه الطبيبة الشريرة قد خدعتها بمعالها طاجة في نفسها .. ولقد كادت تفوز بأربها لولا رعاية الله وعنايته

ولما افاقت مي من رقادهـــا وعلمت ما جرى لها ، واخبرها الدكتور الماهر ان قلبها سليم وانهـا ابعد ما تكون عن الوصب ، ارتمت على صدري وشرعت تقبلني وتقول :

ـ أحقاً ما يقول صديقك يا اديب ؟

فأجبتها وانا اكاد اطير من الفرح :

ـ أجل .. أجل .. سوف تعيشين ايتهـــا الطبيبة .. سوف تعيشين .. ولن يقضي نحبه سوى شمس المجرمة الاثيمة ..

قالت :

ـ وهل صفحت عني ؟ هل غفرت لي ذنبي ؟

فأجبتها :

ـ وكيف لا اصفح عنك يا ملاكي ؟ كيف لا اغفر لك يا من بذلت نفسها في سبيلي ؟

وغادرنا الدكتور فؤاد وانطلقت انا الى بيت شمس . فلما وقع بصرها علي ورأت عبوسي واكفهرار وجهي ، نكصت الى الوراء وهي ترتجف كريشة في مهب الريح . وما لبثت ان تهالكت على مقعد قريب منها ، وقالت وهي تتلجلج :

ـ لا تنتقم مني يا اديب ولا تغلظ في معاملتي .. بل ارحمني

وارث لي .. اوث لامرأة شق شغاف قلبها الحب .. لقد قدر الله علي ان احبك حباً جماً ، وان اهواك كما لم تهوى امرأة رجلا قبلا .. لقد طفى هواك على قلبي وحسي فانتظرت تلك الساعة السعيدة التي تلتمس فيها الزواج مني — كنت احلم بهذه الساعة ، وكنت ابني القصور واشيدها عاليـة شامخة شاهقة — بيـد أنك لم تنقع غلتي ولم تجب نداء قلبي بل انصرفت بكليتك الى مي فخصصتهـا دوني بودك وحبك ، وتزوجت منها ، فتلاشى الأمل وانهارت القصور وتبددت الاحلام . ولا اكتمك اني حزنت كثيراً وحقـدت على مي كثيراً .. فلما جاءت الي عيادتي عادني اليك شوق قتال ، فنسيت واجبي كطبيبة وكصديقة ، ولم اعد اذكر إلاّ اني امرأة عاشقة . فأطعت الهوى غافـلة عن الشرف وخدعت مي وكذبت عليها وادخلت في روعها انها مريضة مدنفة .. حتى اذا أسلمها الوهم والهم الى العطب فزت بضالتي وظفرت بالرجل الذي تيمني

صمتت شمس ونكست طرفها ولم تلبث ان تأوهت تأوه الحزين وأردفت تقول :

— انني قسوت في معاملتي لهـا ولم اشعر بشيء من الشفقة .. فقد جمد الحب قلبي فصيرني خشنة عاتية شديدة الوطـأة على غريمتي ومزاحمتي التي انتصرت علي ..

سوف أرحل عن هذه المدينة يا اديب ولن ترى بعـد اليوم وجهي فاكفف عن ايذائي ولا تلحني وتسلقني بكلامك . . ولا تأخذني بالبـأساء والضراء .. واصفح عني واعف عن هفوتي فقد ذقت وبال جوري واجتمع علي الهوان والشقاء ونكد العيش ! !

# البحر

ما وراءك يا بحر ؟
وماذا تضم في احشائك ؟
وكم جريمة ارتكبت ؟
وكم جريرة اقترفت ؟
ولماذا دعوك بالبحر واليم واللجة والخضم ؟
ولماذا وصفوك بالمدار والمزبد والصاخب والمعربد ؟
ولماذا اكرهك يا بحر ؟
لماذا امقتك واشنأك ؟
لماذا اتمنى على الله ان ينضب امواهك ؟
لأنني .. لانني اطلب الثؤرة يا بحر
لأنني مظلومة انشد الانتقام
وكيف انتقم منك ايها الجبار الا بالدعاء عليك ؟
وكيف اقهرك الا بالابتهال الى الله ان يجففك

ويفيض امواهك ؟

٥

عامان مضيا وكأنهما دهران ...

عامان من العناء والشقاء والبكاء ..

منذ عامين كنت اسبح في خضمك كالحورية ..

فأداعبك وتداعبني .. واجالدك وتجالدني .. واتحداك وتتحداني .. واخرج اخيراً الى اليابسة ظافرة منتصرة . . فانت رغم قوتك وجبروتك وطغيانك ، اضعف من ان تخيفني ، مع انك تحبني . . انت اضعف من ان تضمني اليك لتبتلعني مع انك تعبدني وتهواني ..

وكنت تترقب الفرص فلا تسنح لك منها فرصة ..

وكنت بعد ان افلت من مخالبك الناعمة تهيج فجأة وتثور كالمجنون ، وتزأر وتهدر ككلب ثائر مسعور ...

منذ عامين كنت اسخر منك وافر من سطوتك ..

وكنت اغوص منذ عامين في لجتك ثم اطفو على صفحتك وافلت من قبضتك . .

ولا البث ان اقف عن كثب منك — على الشاطىء الرملي الأمين — اضحك لك واضحك عليك ... فتئن وتتأوه وكأنك تستغيث بي وتتضرع الي ... وتتغير حالتك على حين غرة من اللين الى الشدة ومن الاستخذاء الى التحدي .. فتصرخ وتزمجر متوعداً ، وترسل موجاتك المتلاحقة فتسعى الي جاهدة تدفع الموجة منها

الموجة ، فلاتنـال مني الا قدمي .. ولا تعتم ان ترجع من حيث قدمت ، خاسرة فاشلة ، تعلن عن خيبتها وانكسارها ، فتطويها يا بحر غاضباً حانقاً ، وتبطن لي العداء ، وتسرد حسواً في ارتغاء ، وان كنت لا تنفك تحبني وتشتهيني ...

وقد كنت مني اخيراً فأوسعتني ضماً وتقبيلاً .. الا انني قاومت ولبثت اقاوم .. وناضلت وما زلت اناضل .. حتى كلت قوتي وخارت عزيمتي ووهن جلدي .. واصابني الدوار الشديد فاستسلمت ..

وفتحت عيني المسبلتين فألفيتني في المستشفى .. ورأيت حولي امي واخي وغيرهما من لداتي وصويحباتي

وجلت بطرفي ورحت اتصفح الوجوه فلم يقع نظري على اعز شخص واحب وجه ..

فوجف قلبي وارتعدت فرائصي واصابتني القشعريرة . وداخل حسي إلمام النازلة ، وأنبأني حدسي بوقوع الكارثة ، وتساءلت : «اين هو ؟ ولماذا لم يحضر ؟ لقد كان معي على الشاطىء وكان يطلب مني ان لا اذهب بعيداً في البحر ، فكنت اهرب منه وابتعد ، وكان يلحق بي ويقسرني على الرجوع »

وغافلته في دقيقة شغل فيهـــا عني فألقيت بنفسي في الخضم واخذت اسبح وقد تهت بعنفواني وزهوت بمهارتي ، فرحت اخبط اللجة بيدي الصغيرتين ، واعارك الموج بقدمي الدقيقتين ، واغوص واطفو ، واكر وافر ، الى ان شعرت فجأة بتيار يهاجمني بعنف وقوة ، فقاومته فلم يجد عني بل احاط بي من كل جهة احاطة السوار بالمعصم ، واخذ يلتف حولي ويضيق على الخنـاق . فلم استسلم ولم

اقنط بل ما فتئت اقاومه واحاربه حتى انهـــارت عزيمتي وتلاشت صلابتي وشعرت باسترخاء شديد في اعصابي ، فجعلت اصرخ واستغيث حتى بح صوتي واخذت اغوص في اليمّ

ولا اذكر ماذا حدث بعـــد ذلك ، فقد فقدت وعيي وغبت عن صوابي

*

وتساءلت فأخبرت ان الخوف علي من الهلاك اثر عليه وحطم اعصابه فاضطر الى ملازمة فراشه ...

فشككت فيما زعموه لي وطفقت أحلف في السؤال عنه ، فلم يتبدل جوابهم بل اقسموا على صحة مقالهم..

فتأوهت وذرفت الدمع ورجوتهم ان يطلبوا منه تسطير كلمة صغيرة بخط يده حتى يفرخ روعي ويزول فزعي .. فزعموا بأنه لا يتسنى له ان يكتب شيئاً لأنه يعاني الآلام المبرحة ، ويذي هذيان المريض المشفي . .

وهكذا مرت الايام متعثرة وكنت إبانها موزعة البـال ثائرة النفس قلقة لا اجد للهدوء الذي احن اليه سبيلا

ولما غادرت المستشفى بعد عشرة ايام وألفيت نفسي وحيدة مع امي ، ناشدتها الله ان تطلعني على ما خفي عني طيلة هذه الايام

فضمتني امي الى صدرها وهي تزفر وتتنحب ، ثم قادتني من يدي فأجلستني على مقعد وثير وجلست بجانبي ، واحاطتني بذراعها وشرعت تخاطبني بصوت يقطعه الزفير ويحبسه الشهيق ، فتخرج من

فيها الكلمات كلمة .. كلمة .. وكأن كل حرف مطرقة تهوي على أم رأسي ..

قالت :

ـ أي بنيتي .. تشجعي .. واعتصمي بحبـــل الله .. صابري واصبري .. فانت وحيدتي وقرة عيني .. انت ابنتي التي افديهـا بالروح والجسد .. ان القدر المشوم حكم علينا حكمه الجائر ، ولا مناص لنا من الرضوخ لأحكام القدر فنحن اضعف من ان نتحداه .. نحن ضعاف يا بنيتي .. نحن بني البشر .. فاصمدي .. اصمدي يا حبيبتي .. ولا تسترسلي في حزنك .. لا تسترسلي في شجنك .. فتقتلي نفسك وتقضي على امك ..

وكنت أستمع لها وانا مذهولة مشدوهة شاردة اللب مشلولة الفكر . كنت كمن توقف ذهنـــه عن الحركة . كنت في مقـام مجاذبة بين الجنون واليأس وكلا العـارضين وبيل ، وكلا الآفتين مهلكة مردية .. وكنت انظر اليهـــا وهي تتكلم فاخال ان صوتها المشرب حزناً واسى منبثق من هوة عميقة لا قرار لهـــا .. كنت إخال صوتها الحنون هذا كأنه آلاف من الاصوات الهادرة المدوية الصادرة من كافة الجهـات ، وكلها تنطق بحكم الموت علي وعلى قلبي وعاطفتي

ورمقتها وهي تفضي بالقرار الرهيب بنظرة الغضب والقلى .. ووددت في تلك الدقيقة لو تبرأت منها ومن امومتها .. فهي عدوتي ولا مراء .. عدوتي .. عدوتي .. عدوتي .. هي عدوتي لأنهـــا طفقت تدك صرح مستقبلي حجراً فحجراً بمطرقة كلماتها الهائلة المريعة ..

فما كادت تتم حديثها حتى صرخت بصوت مجنون .. اهتزت له جنبات البيت :

— ويحك يا امرأة ! ويحـــك ! انت تكذبين ! قولي انك تكذبين ! قولي انك تأفكين ! ثم هرولت الى غرفتي فأغلقت الباب علي واخذت اصرخ صراخ الثكلى واعول عويل المفؤود ، حتى تقرحت جفوني واختنق صوتي وتراخى جسدي

لقد قضى حبيبي وهو يجاهد لأنقـاذي .. لقد انقذني خضيبي .. ومات .. لقد فداني بروحه فأثبت للملأ ان روحه العزيزة السامية خليقة بالتقدير والتمجيد

وقصدت في اصيل ذلك اليوم الى مدينة الموتى فقضيت بجواره ساعتين في نجوى مؤثرة .. وبللت جدثه المتواضع بقطر من دموعي الحارة .. وخاطبته بنفس الكلمات التي كنت اخاطبه بها .. فأجابني على كل كلمة .. واجابني على كل سؤال .. فارتاحت نفسي ، وملأت الغبطة قلبي — فهو حي يرزق .. هو حي يلازمني ظله ويواكبني شبحه ، ولا يفتـــأ يحدثني حديث الحب والغرام ولا يبوح بيشني ما يختلج في سويدائه من الوجد والهيام ..

فهو حي .. اجل هو حي .. لهذا تراني اشعر بالسعادة والراحة والسكون كلما زرته وخلوت به ..

حولان انقضيا وانا مثابرة على زيارته كل يوم ..

عامان مرا وانا مواظبة على وصله لا أكلّ ولا أملّ .. بل لا

اطيق شيئاً آخر سواه .. فيفرح كلما سمع صوتي ويبادلني قبلاتي كلما ضممته الى قلبي – كلما ضممت ثرا رمسه الى صدري – فيزول همي ويمحي سهدي . . فهو موجود . . هو حي . .

هو حي .. هو حي .. وسأبقى على وفائي له .. سأقيم على حبه حتى ينتهي العمر ويحين الحين وتأزف الساعة التي أنعتق فيهـــا من ربق الحياة . . فألقاه واجتمع به . . وتلك هي فرحتي الكبرى ، فرحتي الكبرى ، يوم أزف اليه فنرتع ونمرح في المكان الأمين الخالي من البحر القاسي اللامين ! !

# حائرة

لا بأس بها ..
فتاة في الرابعة والعشرين ..
في عينيها جمال . .
وفي محياها وسامة . .
وفي ملامحها قسامة . .
ممتلئة الجسم قليلًا . .
لا هي بالقصيرة ولا هي بالطويلة . .
تستحسنها آنا وتستقبحها آناً . .

تظهر الخفر . . فلا يدري امرؤ اهو الحياء الحق . . ام هو الرياء المحض . . .

وتتكلم مع هذا وتبتسم لذاك . . وترسل نظراتها المعبرة بأفصح بيان عن شتى المشاعر ومختلف الخلجات ، الى هذا وذاك . .
كل ذلك في خفر واستحياء . . !

ومع ذلك فهي في حيرة من امرها عظيمة . . هي كريشة في مهب الريح . . او كسحابة صيف تجمعت ثم تمزقت . . ثم تجمعت . . وكأنها تلتقط انفاسها الضائعة ، بالتقاط امثلاثها الممزقة شذر مذر في الفضاء الفسيح الشاسع . . .

وعرفتها فيمن عرفت من النساء . . فصادفت من قلبي رضى وقبولا ، بالرغم من بعدها عن فتنة القيد الأماليد

وسعيت اليها كما يسعى الصادي الى جب فيه ماء

وتقربت منها كما يتقرب المشرف على الغرق من زورق النجاة . . .

فقد كنت في ذلك الحين ابن ثلاثين . . وكنت قد شبعت من الدنيا ، وشبعت الدنيا مني ، ولم يبق علي الا ان أتوب الى رشدي فأسكن الى بيت وزوج . . وان اصدف عما اخذت به النفس طيلة ايام الشباب من العبث واللهو والمجون . . .

واتجهت بكليتي نحوها ، وكأنها هي الأخرى كانت تتنازعها نفس الخلجات والاحاسيس . . . فاتجهت صوبي ، يحدوها الى ذلك ما يحدوني — شيء . . . او سر . . او اختلاف الجنس . . لا ادري ! !

وتلاقى القلبان والعاطفتان في صعيد واحد . . وانصهرت الروحان في بوتقة الاتحاد ، وسارت بهما دفة الحياة في رعاية الله وحمايته . .

قلت لها وانا اقبض على يدها رغم انفها — لانها كانت تجفل وترتاع كلما مست يدي يدها عمداً او عن غير قصد — « هلم نخرج سوياً فنرود داراً للسينما او نقصد ناد آهلاً من اندية المدينة ، فنتبادل

الحديث ، فالكلام شأن كبير في تنمية شجرة المحبة التي تبذرها يد الدهر في قلبين متآلفين . . . »

فازورت عني مجفلة وقالت وهي تلهث : « انني لا افعل مثل هذا الأمر ، ففتش لك عن فتاة سواي ترضخ لك ولنزواتك . . . »

— ولكنك رافقت غيري من الشباب يا نوال . . رافقت زيداً ورافقت عمراً . . ولا تزالين حتى اليوم تجتمعين بالرجال . . وليس في هذا الأمر ما يعيب الفتاة الحصان . . .

— أفٍ لك من غيور ! ويحك من أناني يستولي عليه الطموح ويأسر لبه هوى النفس !

— وما شأن الغرور فيما نحن فيه ؟ ما شأن الأنانية والطموح حتى تصميني بها ؟

وافترقنا على خصام . . ولكنني سويت الامر في اليوم التالي ، وعرجت على منزلها ، فتعرفت على ابيها وامها وشقيقاتها . . فأعجبت بالأسرة من حيث هي فروع متماسكة . . ومن حيث هي اغصان فنواء يشبع بعضها بالبعض الآخر آصرة واحدة . . .

ولم أتمالك من ان عرضت عليها فكرة الزواج ، ولكنني رجوتها أن تروي في الأمر فلا تتسرع حتى لا تندم يوم لا تنفع الندامة . . . وحتى لا تندم يوم لا يجدي السلم

فلما سمعت كلامي وعرفت اني صادق الطوية حسن النية قبلت عرضي جذلة مسرورة فلم يبق علينا الا الاتفاق على الشكليات والاجراءات التي تمليها او تفرضها التقاليد المرعية

ثم اني حينما رافقتها في اليوم التالي ، وقد ارتبط مصيرها بمصيري ،

أو أوشك على الارتباط ، أبدت من الضيق والامتعاض ما شدهني ، واظهرت من نفاد الصبر ما ملأ قلبي شكاً وارتياباً . .

ومع ان الشك وقود الغرام ومضرم نيران الهوى كما يقال في الامثال السائرة او السارية . . الا ان النفس نازعتني في ان أستشف دخيلتها واتبين حقيقة حالها . .

فعلمت انها تظهر أمراً وتبطن سواه . . وانها في الوقت الذي تعرب فيه عن رضاها وقبولها ، تطمح ببصرها الى رجل سواي . . الى رجل فسل تافه لا ينتمي الى الرجولة إلا بشكلها وسمتها واسمها — والمظهر غرار يخدع البصر ولكنه لا يخدع البصيرة — فعاتبتها وعذلتها . . فأنكرت صلتهـــا به ، ونعت علي غيرتي ، ونعتني بالفضول والتطفل !

وتغـــاضيت حينذاك عما لمست من انحرافها قليلاً عن الصدق والصراحة ، وعزوت ذلك الى قلقها واضطرابها وعدم استقرارها . . . ولعلي كنت مشفقاً عليها وعلى نفسي من نقض رأيي فيها وفي كمالها وانوثتها اعتقـاداً مني بأن كريم الأرومة لا ينحدر الى الدرك . . وأن عريق المحتد لا يعثر ولا يكبو ، كالجواد الأصيل . . .

وهمس في اذني هامس : « لا تقدم قبل ان توقن ! لا تسقط قبـل أن تعثر على الخفـــايا ! لا يغرنك ما ترى . . بل انظر فيما لا ترى ! ! »

وكان لهذه الكلمات الحكيمة فعـــل السحر في نفسي . . فأنا مطبوع على التسليم سريعاً بكل ما يقال في النساء . . وديدني — وهو كالقيد الذي يغل العقل — التقصي عن المرأة قبل الركون اليهـــا

والثقة بها . . !

فأغدقت المال على الهامس ووعدته بالمزيد ان قدم الدليل على حبّها وخداعها . فعاهدني على بذل وسعه وأمهلني بضعة أيام ريثما يقوم بمساعيه فيقدم الدليل على إفك نائلة ومحالها . .

وسعى الي بعد يومين وناولني رقعة صغيرة ما كدت اطلع على فحواها حتى دهمني نوع من الذهول المشرب بالاشمئزاز . . فقد جاء في الورقة بخط نوال :

( عزيزي . . . . ان كنت تهواني كما تزعم فحافظ عليّ . .
وان كنت تشتهيني فقم بما يحتمه الواجب عليك . .
انا لك ان شئت . . انا عبدتك ان أردت . . أنبس
بكلمة واحدة او بحرف أمسي خادمتك بل عبدتك . .
واني أبتهل اليك ألا تتركني أعمه في حيرتي . .
وأناشدك الله ان لا تظلل أفق حياتي بسحابة قاتمة
من القلق والتبلبل . . ! )

فاغتمت نفسي واجتاحتني موجة قنوط عارمة من هذه الدنيا الدنية المفعمة بالمدالسة والموالسة . . وفكرت في مجابهتها بالحقيقة التي اطلعت عليها ، الا اني عدلت عن هذا الامر ، ثم تجنبتها وجفوتها ، وآليت ان افصم كل علاقة تشجني بها . . .

وعجبت نوال لصدوفي عنها وعزوفي عن زيارتها . . فحاولت بكافة الوسائل ان تسبر غوري وتكنه سري ، بيد اني لم أبح لها ولا لمن أوفدته من قبلها بالسبب المفضي الى القطيعة . . .

وتعاقب الملوان وتصرمت السنون والأعوام ، وتقدم بنوال العمر حتى اشرفت على الثلاثين — وابنة الثـــلاثين عانس في نظر الرجال حتى من جاوز منهم العمرين — فانفضّ عنها من كان يحوم حولها . . . كما ان حبيبهـا ذاك الذي ابعد قلبي عن قلبهـا وفصل حياتي عن حياتها لم يلبث ان هجرها ساعة خبر موضع الضعف فيها ، ولمس حيرتها التي ما برحت تهدم صرح حياتها حجراً إثر حجر حتى آتت على البناء برمته !!

لقد قضت نائلة غضارة العمر حائرة . . ولا تزال تعمه في حيرتها العظيمة هذه ، فتعدل اليوم عن رأي ارتأته بالأمس وستبقى الى ما شاء الله تتقلى على هذه النار المضطرمة المستمرة الأوار حتى تذوي وتذبل . . وتصير في النهـاية الى العدم — مجهولة . . مغمورة . . مقطوعة النسل . . مكسورة الخاطر . .

# عدل السماء

في بهيم ليلة داجية اتشحت فيها الدنيا بجلباب حالك السواد ، خرج رؤوف من بيته الصغير الكائن في ناحية من مصنع النسيج المترامي الأطراف ، البعيد عن المدن والعمران ، وفي يده سراج مصفح بالزجاج ، واتخذ له مجلساً على أريكة خشبية قريبة من البيت يترقب وصول منير المفتش المالي ، وهو فزع خائف مضطرب لا يهدأ له قرار ويحسب ألف حساب لهذه الزيارة الفجائية المباغتة التي أحيط بها علماً على حين غرة منذ ساعات معدودة

وما كادت السيارة التي تقلّ المفتش منير تقف بجوار البيت حتى ترجل منها رجل نصف مليء الجسم مديد القـــامة صارم الملامح ، فألقى على رؤوف تحية جافة مقتضبة ، وشرع من بعدها يبحث معه فيما يتعلق بالنقص الكبير في أموال الشركة صاحبة المصنع . وما لبث أن حدجه بنظرة قاسية تفيض لوماً وتعنيفـــاً وقال بصوت مشرب بالتهديد والوعيد :

ـ هذا بحث لا طـــائل تحته لأني واثق بأن شقشقتك كانت اختلاس هذه الأموال . . فلا تكابر فتنكر ما أعزوه إليك ، ولا تغلو في القحة فتهرب من المسؤولية وتتنصل من التهمة . . ولا يغرب عنك أني أملك البراهين التي لا تدحض ، وانني مزمع أن أفوض أمرك الى القضاء ليقول فيك كلمته . بيد أني لاعتبارات يطول بي شرحها ، أرى أن أمهلك اسبوعاً تتدبر خلاله أمرك ، فأن قدرت في نهاية هذا الأسبوع على ردّ المال المسلوب أغضينا عنك وتجاوزنا عن سيئتك ، على ان تعتزل منصبك كمدير للمصنع . أما إذا أحجمت عن ذلك فلا محيد لنا عن إحالتك الى القضاء ليفصل في أمرك

فأجابه رؤوف مستعطفاً متذللاً :

ـ أرود يا سيدي وافسح لي في الوقت ، وامهلني الدين حتى يتسنى لي لقـاء ولدي . . . أنت تعرف ولدي ، وإخالك لا تجهل أني لم أمتع طرفي برؤيته منذ مبارحته الديار الى المهجر ، وقصاراي الآن أن أراه قبل أن يغيبني الثرى في أحشائه . . انه قادم بعد شهرين ، فبربك أمهلني هذه المدة ولن تطول حياتي بعد ذلك ، فقـد أمنت عليها لقاء ثلاثة آلاف جنيه ، والموت لمن كان في عمري أمر عادي مألوف لا يثير الشبهـات . . . وهذا المقدار من المـــال يكفي للتعويض على الشركة ! فارث لي واشفق على شيخوختي ولا تصر على ما حممت عليه ، حتى لا تسم اسمي بميسم الخيـــانة والغدر ، فيلحق بابني من جراء ذلك أوضار العار وأقذار الشنار !

ـ دون طلبك خرق القتـاد يا هذا ! فلا تماطـل ولا تراوغ ، وتأكد بأني لن أرحمك بعد اليوم ، فدبر المال في غضون سبعة أيام .

ها أنذا منذرك وقد أعذر من أنذر . . دبر المال وانتظرني في مثل هذا اليوم من الاسبوع القادم

ولما انتهى من كلامه استدار على عقبيه ومضى من حيث أتى وابتلع الظلام السيارة الصغيرة ، فصار لا يلوح منهـــا سوى بصوة براقة ضعيفة من نور يتراقص من بعيد ويتضـــاءل رويداً . حتى اذا ما تلاشى القبس الأحمر الخافت كما تلاشى الأمل من صدر رؤوف ، تنفس الكهل الصعداء وأخذ يحرق على الأرض وهو لا يزال ينظر بعين متقدة مضطرمة بنار الغل والموجدة ، الى الجهة التي غابت فيها السيارة ، ويناجي نفسه قائلاً :

ـــ تباً لك يا منير من حلف قاسي الفؤاد ! تبـــاً لك من جبار عُتل لا ترحم ! تبـاً لك من دنيء لئيم النفس لا تحفل كرامة غيره من الناس ! ولكن . . . ويحك من احمق غررت بنفسك وعرضتها للتهلكة ! ستموت يا منير . . فقد سعيت لحتفك بظلفك ! ستموت يا منير . . لأني لن أدعك تشهر بي فتقضي على ابني حسرة وكمداً ! لقد حكمت على نفسك بالموت . . فلتسق كأس المنون ولتذق وبال جورك وظلمك وبغيك ! وليعش ابني مرفوع الرأس موفور الكرامة ! !

ومضت ستة أيام وأرسل رؤوف من يجيء له بنجا ـــ ونجا مارد جبار سهل الانقياد ، وهو أبله شديد الغبـــاء . وكان يطيع رؤوف طاعة عمياء . . ولا غرو فقد انقذه رؤوف من شرة الجوع والسغب ، وألحقه بالعمل ، وأسبغ عليه الكثير من العطايا والمنح مقابل ما كان يؤديه له سراً من الخدمات التي لا يعرف كنهها أحد

سواهما . .

فما مثل بين يديه في اليوم السادس ، قـــال له رؤوف وهو يومض بعينيه :

ـ إنني مضطرب يا نجا . . انني في حرج وضيق . . ولا يفرج عني شدتي ويخفف كربتي إلاك يا صديقي ورفيقي . . هل تفهم ما أقول ؟ !

فطفح وجه المارد بشراً ولمعت عيناه تحفزاً ، وهتف :

ـ نعم . . نعم . . انك تصطفيني من دون الغير لنجدتك ومساعدتك ، لأنك تثق بي . . فاعلم بأن نجا يقدم حياته من أجل مرضاتك !

واستطرد رؤوف كأنه لم يسمع ما فاه به الرجل :

ـ قلت لك انني متعرض لشر مستطير ، وأزيدك إيضـــاحاً بأن عدوي اللدود قادم غداً الى هذا المكان . وقد ندبتـــك ايها المخلص الوفي لكي ترحني منه . فهل في وسعك القيـام بهذا الأمر الخطير ؟

قال :

ـ إن نجا طوع أمرك . . إن نجا خادمك الأمين . .

قال :

ـ ويسرني ان تحكم عملك فتخفي جثة هذا الدنس حتى لا يعثر عليها أحد من الناس . وثق بأنك إن أسديت لي هذه الخدمة أنقذت حياتي من الموت المحقق الذي ينتظرني على يد هذا الرجل واصحابه الأنذال . . ولكي تدرك وطرك فلا تخطىء القصد ، لا تنس ان

عدوي هذا يضع على عينيه نظارة ويدخن غليونه باستمرار . .

وفي منتصف النهار التالي وجدت سيارة منير خالية دامية في مكان قريب من المصنع . وما كاد خبر السيارة الخاوية المضطبغة بالدم يذيع حتى هرع رجال الأمن الى المصنع فاستجوبوا الخدم ، وضيقوا الخناق على العمال والموظفين ، وناشدوا رؤوف ان يبذل قصارى جهده في تقصي الجريمة وجمع خطوطها ، حتى يتسنى للأمن ضبط المجرم الأثيم والعثور على جثمان منير المسكين !

فوعدهم خيراً وأكد لهم بأنه لن يألو جهداً في تعقب آثار الجاني والبحث عن القتيل !

وتصرم من الزمن شهران ، ولم يتوصل أحد من المحققين إلى كشف النقاب عن سر الجناية الدفين ، فأسدل عليها ستار النسيان ، ولم يعد أحد من المسؤولين يذكر منيراً إلا لماماً . .

وكان رؤوف خلال تلك الفترة يتعجل الأيام ليحظى بلقاء ابنه الشاب ، وكان يتحرق شوقاً الى اليوم الميمون الذي يكحل فيه عينيه بطلعة وحيده ، ويتمتع بمحادثته ومناغاته بعد تلك الغيبة الطويلة . .

وبينما هو ذات يوم يشرف على بعض الأعمال في المصنع ، إذ مر به ضابط البوليس : فلما رآه رؤوف وحياه ، قال الضابط وهو يهش ويبتسم :

— ليهنك لقاؤك بابنك يا صاح . . لقد انتظرت سنين ، وها أنت ذا تكافأ على صبرك واحتمالك . . أما ابنك فهو مثال الشاب الأريب الأديب . . .

فتطلع إليه رؤوف مشدوهاً مبغوتاً وقاطعه قائلاً :

ـ كفاك مزحـــاً وسخرية يا سيدي . . إنني لفي شغل عن الهزل . .

قال :

ـ وعلام اسخر منك ؟ وهل سبق ان ماجنتك حتى تتخذ جدي عبثاً ؟ لقد عرج علي ابنك البـارحة ومكث معي زمناً ثم ودعني ومضى في سبيله !

فاختلج قلب رؤوف اختلاجة الخوف ، وتندى جبينه من العرق . ولكنه تجلد وكظم ما به وقال :

ـ انه لم يأت يا سيدي . . فأين ذهب يا ترى؟ أين ذهب ؟ !

قال :

ـ ليفرخ روعك وليهدأ خوفك . فلا جرم أنه ضل الطريق ، فلما تشعبت به السبل عجز عن سلوك الجادة التي كان يخلق به سلوكها ليصل إليك . . إنني ذاهب الآن الى مكتبي وسوف آمر رجالي بالبحث والتقصي حتى يأتوك به سليما معافى

ما كاد الضابط يغادر رؤوف المضطرب الوجل ، حتى برز نجا كالشيطان الرجيم . . فتطير رؤوف ساعة رآه قادماً وتشاءم حينما أقبل عليه يلثم رأسه . . . ولكنه كبح جماح نفسه وكتم ما جاش في صدره وسأله مستفهماً :

ـ ما وراءك يا نجا ؟

ـ ورائي كل خير يا مولاي . . ألم تحدس ما فعله نجـا ؟ ألم تحدثك نفسك بما قام به نجـا ؟ ألم تشعر بالفرح والانشراح للخدمة

الثانية التي أسداها لك نجا ؟ !

فوجف قلب رؤوف وامتقع لونه ، وشخص الى نجا مذعوراً معقول اللسان . . وطفق يستعيد كلماته — « للخدمة الثـــانية التي أسداها لك نجا ؟ !»

وما عتم أن أنّ أنين الثكلى وأعول عويل المفؤود ، وعلق يحملق في الوجه العريض الجامد وهو يرعد ويرتعش . . ثم تبرقع وجهه بالاكفهرار والعبوس وصاح بصوت أجش مبحوح :

— سحقاً لك يا نجا . . ماذا فعلت ؟! ويحك أيهـا الملعون . . ماذا اجترحت ؟ !

فابتسم نجا بسمة النصر والظفر وأجابه قائلاً :

— كان يضع هو الآخر نظـــارة على عينيه ، ويدخن غليونه باستمرار . . فاصطدته وألحقته بسلفه . . انها مشيئة الله يا مولاي!

فصرخ رؤوف وقد احتقن الدم في وجهه :

أف . . أف . . يا للمنتقم الجبـار ! إبني . . إبني . . إنها مشيئة الله . . أجل إنها مشيئة الله !

وما أبطأ ان شهر مسدسه واستتلى بصوت عميق رهيب :

— انتـــهى كل شيء ! فالى الجحيم يا نجـــا . . وإلى الجحيم يا رؤوف . . فالله حانق عليكما منتقم منكما . .

وانطلقت رصاصتـــان . . وانطلق الحتف لا يبطىء الى صدرين ! !

# قلب الأب

هو أب وابنه حيـــاته وروحه وأمله . كان يحنو على الطفل ويكلأه بعنايته ويحيطه بحبه ورعايته ولا يدخر وسعاً في الترفيه عنه وتوفير الحياة الرغيدة له

في كل صباح كان يطعمه ويسقيه ويقضي له جميع حاجاته ، ثم يصحبه إلى المدرسة . .

وفي كل مساء كان يعرج على المدرسة فيسترجع طفله ويقفل راجعاً الى منزله . .

وما أكثر ما تساءل الطفل عن أمه . وما اكثر ما طلب إلى والده في إلحاح أن يجمعه بأمه . فكان الرجل يتذرع حيناً بالصمت ، وحيناً آخر كان يلتمس الأعذار ، فيمني الطفل باللقـاء الوشيك ، والألم يحز في نفسه ويكاد يمزق مهجته ويفري حشاه !

وكانت أسارير الطفل تبرق جذلاً وطرباً كلما سمع من أبيه هذا الكلام ، وكلما مناه أبوه بقرب اللقاء . .

وكان قلب الاب يذهب شعاعاً كلما أعياه تفكيره عن الاهتداء الى وسيلة يدفع بها المحنة قبل وقوعها . .

وكأن الغلام فطن الى الحقيقة المرة من تردد أبيه واضطرابه . وكأنه أدرك بما رآه من حيرة أبيه وقلقه ، أنه مقضي عليه ان يحرم من الام على نقيض أترابه ولداته ، فتهافتت روحه وفاض كربه ورغب عن الطعام وانصرف عن اللعب وانطوى على نفسه لا يحدث أحداً إلا نفسه !

وما لبث الشحوب أن علا محياه ، فغاض رواؤه وذبلت نضرته ، وأضحى ساهم النظرات لا يضحك إلا غباً ولا يبسم إلا لاماً !

وفطن الاب الى ما طرأ على ابنه ففرق من الطـــارئة الملمة ، وروع من الداهية الداهمة ، وودّ لو افتداه بنفسه ، واشترى هناءه وراحته بروحه وجسمه . . ولكن أنّى له هذا ؟ أنّى له ان يجلب المسرة إلى قلب طاهر بريء يتوق إلى حنان أم رؤوم تسبغ عليه عطفها ومحبتها وإخلاصها ؟

ولزم الطفل الفراش وقد وعكه الاعياء والسقم ، ومغث في بدنه ألم الروح والنفس . . وعاده الطبيب فحار في أمره ولم يهتد الى موطن الداء في جسده ، ولم يدر أهو المرض المستفحل ينشب فيه مخالبه السامة ، أم هو الهم والغم يمثلان به كما أعرب الأب الملتاع ؟ وكيف للطبيب الرشيد ان يصدق أن لمثل هذا الصغير كلوماً لا تشفى ؟ !

ومضت أيام والرجل المهيض الجناح الكسير القلب يتقلب على نار من اليأس والاسى . . ووحيده يتململ بين الصحوة والاغماء . .

إذا فتح عينيه طلب امه . . وإذا أغمضهما طلب امه . . وإذا سبح في بحران من الذهول والشرود والهذيان طلب امه . .

وزحف الموت المريع وهو لامع العينين ، ينظر إلى الغلام الصريع بشراهة ووحشية ، ويتلمظ بشفتيه ، ثم يدور حول الفراش ويفرك راحتيه — فما اشهى الفريسة ! ما اشهى الثمرة الدانية القطاف ! ما اطرى العود الذي يوشك ان يقضمه ويتمتع بالتهامه ؟ !

وبذل الرجل ما في وسعه ليذود عن ابنه غائلة الموت . وأنفق المال بلا حساب ، واستنجد بأشهر النطس والاطباء ، فلم تعد عليه جهوده جميعاً بطائل ، ولم يزحزح المنون قيد انملة عن فراش الفتى الراقد في سكون واستسلام . . بل لبث الموت المريع رابضاً في مكانه يتربص الدوائر بالعليل بصبر لا ينفد ، كأنه لا يرضى عنه بديلاً !

وجلس الرجل كعادته في اصيل كل يوم ، قبالة سرير الصغير . ومثل الحمام لعينيه ، فتوجع وتحسر ، واستعبرت عيناه ، وهمي دمعه ، وبكى ما شاء له البكاء . . ثم جثا على ركبتيه ، ودفن وجهه في راحتيه ، وطفق يصلي بخشوع وخضوع :

« أللهم . . . أللهم . . . نج ابني
« أللهم . . . أللهم . . . أبق عليه
« رباه . . . أيها العلي القدير . . . خلصه
« رباه . . . جد علي برحمتك
« جد علي بحنانك . . . جد علي برخوانك

ودخلت الشمس في الطفل والرجل الحائر اللاغب يضرع الى الله ويبتهل إليه بعبارات متقطعة مسترحمة

وخفتت الاصوات في الشارع ، والرجل لا يفتأ يستصرخ الله

ويستجير به ويجأر إليه

وصخ سمعه بغتة صوت ابنه يهتف :

« أماه . . أماه . . وافرحتاه . . أهلاً بك يا أماه ! »

وطرق الباب في تلك اللحظة ، وجمد الرجل في مجثمه لا يتحرك وكأنه سمر من ركبتيه إلى الأرض . .

وطرق الباب كرة ثانية ، فاهتز جسمه وارتعدت فريصته ، وتندى جبينه من العرق — أهو الموت ؟ أهو الموت ؟ أهو الموت الكريه يبغي هصر العود الرطيب ؟ !

وتداعى الرجل المتشنج ، وسقط على الأرض مغشياً عليه

ولما فتح عينيه رأى امرأة أو شبح امرأة ، تحتضن ابنه الحبيب . . فانتفض انتفاضة الفزع والدهشة ، وحملق في المرأة الناحلة الضامرة ، ونظر إلى ابنه المريض في بدنه ونفسه . . فألفا عينيه تشعان بنور الحياة ، وشفتيه تقرقران بضحكات الحيـــاة . . ورأى في الخدين النـــاضبين حمرة كحمرة الشفق . . والتفت الى الموت فألفاه منكمشاً على نفسه من الخيبة والفشل !

ونظر الغلام إلى أبيه وقال وهو يعـــانق المرأة ويضمها الى صدره :

« أبي . . أبي . . لقد رجعت أمي . . لقد رجعت إلي . . »

واستدارت المرأة في ذعر ووجل ناحية الرجل المذهول المشدوه ، ولم تبطيء أن أمسكته من يده وجعلت تقطرها بقبلاتها وهي تقول :

« المغفرة . . المغفرة . . لقد حطمت فؤادك ولوثت اسمك ولطخت شرفك بالرجس والعار ، وكدت أقوض صرح بيتك على

رسك ورأس فلذة كبدك .. ألا فاصفح عني واغض عما اجترحت واقترفت ! »

وحدج الرجل الخاطئة النادمة بنظرة صارمة قاسية ، فغلى الدم في عروقه وكاد يبطش بها ..

ورنا الى وليده الذي عادت اليه الحياة .. ونشب عراك في صدره وأي عراك .. ودارت رحى معركة ضروس وأي معركة ..

ورجحت كفة على كفة .. وانحنى ببطء .. وأغمض عينيه المغرورقتين وهو يقبل الخاطئة !

# موت عذراء

ما دمت لا أجد سبيلاً إلى النوم كلما حاولت ذلك ، فأولى بي ان أكتب إليك لأبثك اشجاني وأوحي إليك بآلامي ، وأطلعك على ما قضّ مضجعي و كحل بالسهاد جفني ..

إنني اشعر بانقباض شديد .. بل إنني لم أشعر طيلة أيامي المتصرمة بهذا الحزن المرير الذي لا يقرّ إلا ليهيج ، ولا يخمد إلا ليضطرم ويستعر

ولقد سوّلت لي نفسي مراراً أن أكتب إليك ، فكنت أتردد بين الاقدام والاحجام .. أفكر فكر المتحرز من العاقبة .. واضطرب اضطراب المتململ بين امرين ..

ولعلك تتسائل ساعة تطلع على هذا الكتاب ، عن مبعث حزني ومنشأ شجني .. وسأكفيك أيها الصديق عناء التفكر في أمري ، ومشقة اكتناه سري

فأنا منذ سلّ الزمان عليّ سيفه القاطع ، ودهمني بالخطب الفادح ،

وقصف عود هذه العذراء الرطيب ، لا أبرح أراها في الليل والنهار ، ولا ينفك شبحها يطوف بي كلما هجعت عيني وغمض جفني

فقد بلغ من قلبي الحب لهذه الحسناء مبلغاً لا ضهي له .. فقدستها وعبدتها بالرغم عن انصرافها عني وانشغال بالها بمن لا يستأهل حبها ولا يستحق قلبها ولا يساوي قلامة من ظفرها !

وإني وايم الحق ما وقع ناظري على صنو لهذه الانسانة الكاملة في الخَلق والخُلق .. لا ولم أر قط امرأة في ريّق العمر وموعة الشباب ، أشد ضبطاً لأحاسيسها ومشاعرها منها ... فانها لم تفارق الابتسامة فمها أثناء حياتها ، كما أنها لزمت شفتيها إبان عبورها في الجسر المفضي إلى الأبدية ...

وما أكثر ما ارهقني فكري ومضتني ذكرياتي ، وما أكثر ما غثت نفسي وتهافتت من النصب والاعياء روحي ، كلما تراءت لي وهي تجود بأنفاسها

ففي الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم المشئوم دعيت على عجل ، فأهرعت إلى مسكنها وانا واجف القلب مرتعد الاوصال . فلما ولجت المخدع المتسع ، كان أبوها أول من استرعى انتباهي — كان يجثو بجانب السرير وهو قابض بيد المحتضرة بكلتا يديه .. وكان وجهه المكتئب المكفهر مبللاً بالدموع المنهمرة كالمطر من مآقيه ..

ومع أنها هي التي كانت تقاسي عذاب الموت ، إلا أني سمعتها تواسيه وتشجعه ، ولا تفتأ تبسم في وجهه

وفي الناحية الأخرى من السرير ، جلست امها الطيبة النبيلة . وكانت ملامحها الجامدة الساكنة تنطق بوضوح بما يتأجج في صدرها

من نار الشجـــا . وكانت تتكىء على حافة السرير وتسند رأسها بذراعها

ولم تكد الام الوالهة تشعر بوجودي حتى رنت إلي بطرف كسير وهتفت بصوت متلهف حسير : « أواه يا سيد جلال ! أواه ! إبنتي العزيزة .. ابنتي الحبيبة .. » وخنقتهـــا العبرات وماتت في جوفها العبارات !

وكانت شقيقتها معقودة الأصابع معقولة اللسان ، متجهة بعينيها الجاحظتين إلى سقف المخدع ، كأنهـا تستجدي المساعدة وتستدر العون من لدن الله القادر على كل شيء . وكانت تجثو هي الأخرى بازاء السرير وقد همت مدامعها ، فتدحرجت القطرات الحارة على الخدين الفائرين ...

وجلست الممرضة على ركبتها بين الأب والأم . وكانت يداها ممدودتين إلى الأمام ، وهي لا تفتـــأ تلقي على المحتضرة نظرات التفجع والتوجع ( مع أنهـا ألفت مثل هذه المشاهد التي يعمد فيها جسد وتصعد روح ) .. فلما دلفت إلى المخدع التفتت نحوي وكأنها تستحثني على الاشتراك في هذا الحزن العارم العميم والشجو العظيم الذي لا يريم .. وما كدت ادنو منها حتى وكفت عبراتها من جديد ، فسجم دمعها السخين بسخاء عجيب !

أما الخادمة المعتمدة برأسها على قائمة السرير ، فقد حرصت على التعبير عن حزنها وأساها بطريقة اشد وضوحاً من طريقة سواها ممن أحاط بالسرير وتجمع حول الحسناء العليل

وكانت الحسناء المحتضرة التي شفّهـــا الدنف وأضمرها المرض

تحرك شفتيها دون أن تنطق . وكانت كما قلت ، تضع إحدى راحتيها في يد ابيها . إلا انها تأوهت عندما هتفت أمها باسمي . وما عتمت ان فاتت بصوت عميق الغور :

« أواه ! يا سيد جلال .. انني أعنو للقدر واخضع لحكمه ... ولا يسعني إلا أن احمد الله على رأفته وشفقته .. وأستغفره على ما فرط مني من ذنوب وخطـــايا .. وأبتهل إليه أن يعجل بالخاتمة .. لأرتحل عن دنيا الفناء في لحظات .. فينتهي بذلك هذا العراك الناشب بين غريزة حب البقاء وبين داعي الفناء ... »

ورنت بصرها إلى أبيهـــا المفطور الفؤاد ، وألقت عليه نظرة هادئة ، وقالت :

« تجمل بالصبر يا ابي .. تجلد .. ولا تجعلني ألومك على وهنك واستخذائك .. وعلى أنانيتك أيضاً وأثرتك .. فأنت كما يتراءى لي لا تود ان تراني هانئة سعيدة .. أو أنت كما إخالك ، لا تبتغي لي الراحة الأبدية السرمدية التي تعقب هذا العناء وتخلف هذا الشقاء .. ! »

وتوقفت عن الكلام ، وساد صمت وسكون ، وانشأت العليلة اثناءه تتأمل وجهي الجهم المقطب الحـــاجبين ؛ واستطردت بعد قليل تقول :

« ما هو الموت يا عزيزي ؟ ما هو الموت ؟ أليس الموت أمراً شائعاً بين الملأ ؟ أليس الموت أمراً مكتوباً على الانام ؟ فلم الخوف منه إذاً ؟ ولم التفجع على من يمضي ويزول ؟ إنه ليس بالحدث الشاق لو تفكر الانسان وتبصر ـ ليموت امرؤ .. ماذا هناك ؟ ليموت .. فيرتاح .. ويريح ! ؟ وانني والحمد لله قد اتخذت الاهبة وأعددت

المدة لمثل هذه اللحظة الفاصلة .. ولهذا تراني عامرة القلب بالإيمان .. مفعمة الصدر بالأمل ... »

وشع وجهها الشاحب في تلك الاثناء بنور الأمل .. بل بنور السعادة .. وطفحت أساريرها الناحلة بفيض زاخر من الثقة والاطمئنان . فأخذني العجب من هذه النفس المطبوعة على القوة والعزم ، أجل .. عجبت لهذه النفس المستسلمة لحكم القدر الواثقة من حسن المعاد .. ونسيت نفسي ونسيت غمي في غمرة هذا الاعجاب والاستغراب !

وجعلت العذراء القريبة من الموت تستجمع قواها الذاهبة ، فتململت في فراشها كأنها تستمهل الموت ريثما تقضي بذات نفسها . ولم تعتم أن تابعت حديثها بصوت متهدج :

«أرجو منك ايها الصديق ان تنعاني إلى شقيقتك بكلام جميل .. وأن تصف لأمك مبلغ ما أكنه لها من حب ومودة واخلاص .. أخبرهما باني دعوت لهما وطلبت بركة الله عليهما .. أطلعهما على ما أضمه لهما بين جوانحي من شكر وعرفان ، على ما اسدياه لي من إحسان .. اخبرهما بأني لفظت انفاسي وأنا ألهج بذكرهما واتلفظ باسميهما .. طمئنهما عني .. طمئنهما حتى لا يُراعا ولا يفزعا ... وصف لهما مبلغ هدوئي ومقدار ركوني إلى هذه الرحلة . ! »

وجمدت الكلمات ثانية على شفتيها ، فأغمضت عينيها ، ورفعت يديها ، وجعلت تمرر أصابعها على جبهتها المعروقة ووجنتيها الناضبتين ، وهتفت بعد هنيهة يسيرة تقول :

« أيها الموت ! لقد سللت عليّ سيفك لتفزعني .. أيها الموت لقد

تجهمتني واستقبلتني بوجه كريه لتروعني .. ولكنك فشلت وبؤت بالخيبة .. لانني لا اخافك .. لانني لا اخشاك !! »

ثم استداروا نحونا فرأتنا تائهين في حزننا ، سادرين في شجوننا ، فقالت متسائلة :

« ما بالكم ايها الاعزاء ؟ ماذا دهاكم حتى غاب عنكم أن ما أبلوه الآن هو عراك طفيف بين الروح والجسد — لتتحرر الروح في النهاية من قيود الجسد .. من ربق الشر والكمد ... »

وتوقفت عن الكلام مرة اخرى وطفقت تتنفس الصعداء وتنظر الى السماء .. وارتسمت على شفتيها الرقيقتين الباهتتين ابتسامة حلوة ، كأنها ترحب بما يربض بها ويربض لها .. ثم حولت رأسها الى ناحيتي ، وصعدت طرفها في قامتي ، وقالت لاهثة :

« قل لطوسون اني اسامحه .. أنبئه أني نسيت إساءته .. اخبره أن قلبي الذي عمر بحبه ، لا يتسع لبغضه .. انقل له صورة صادقة عني وانا اصلي من اجله وأضرع الى الله ان يعفو عنه ويصفح عن زلته .. »

وشخصت المشفية بطرفها الى السماء ، وشرعت تصلي من اجل الرجل الذي اساء اليها وغرر بها .. ثم استتلت :

« صف له ما أشعر به من سعادة وهناء .. وانا على ابواب الآخرة .. بلغه تمنياتي له بأن يلقى وجه ربه بسلام واطمئنان عندما يحين الحين ويحم القضاء .. ما بال نظري يضعف ونفسي تخور ؟ ما بالي ارى سحابة تظلل ناظري فلا ابصر بكم ولا اسمع صوتكم ؟! أليست هذه يد امي ؟ اعطني يدك يا جلال .. »

وامسكت بأصابعي واصابع امها ، واردفت :

« ليبارككما الله .. ليبارككم جميعاً .. وليسعدكم في حياتكم وموتكم ... »

وعادت الى الصمت وثقل نفسها وتقطع، وغامت عيناها، واخذ صدرها يعلو ويهبط . وقالت بعد دقيقة :

«وانت يا اختاه يا من كنت لي خير معين في الشدائد والملمات .. تقبلي شكري الخالص .. وقولي لصديقتنا ماجدة .. بأنها ستصبح يوماً ما .. ستصبح من النساء المخلدات .. في السماء .. لانها .. وهي المعذبة على الارض .. المظاومة .. المهيضة الجناح .. لن تمنى بهذه الدواهي في السماء .. لن تلقى هناك إلا كل خير .. وكل محبة .. لانها كريمة في شدتها .. كريمة في رضائها .. لا تحقد ولا تنقم .. بل تعفو وتصفح .. ولا تسوء من اساء اليها .. بل تغفر له وتتغاضى عن سيئاته .. اخبريها بأني تذكرتها في ساعتي الاخيرة .. وذكرتها بكل خير .. »

ولن انسى ما حييت لهجتها المتقطعة وكلماتها اللطيفة التي كانت تتفوه بها وهي في لهات الموت . لا ولن انسى جرس صوتها العميق الفور الذي عاد يقول ، بينما عادت يدها تضغط برفق على يدي :

« ارجو ان ترعوي يا جـــلال .. ارجو ان تفيء الى نفسك فتقلع عن غيك .. فهذا خير لك .. ألا ترى مصير الانسان ؟ ألا ترى كيف يمضي وكأنه ما وجد وكأنه ما كان ؟!»

❁

وتذكرت طوسون في تلك اللحظة الرهيبة وتذكرت ما جره على هذه العذراء من ويلات ومصائب ..

فقد شغفت بها وتدلهت بحبها ، وربطت بيننا أواصر صداقة متينة . وحدثتها بما أكنه لها وأشعر به نحوها من لواعج الحب والهيام ، وأطلعت والديها على دخيلة أمري

ولكنها كانت في شغل عني — كانت متعلقة برجل سواي .. وكان طوسون هو ذلك الرجل الذي استولى على لبها واستأثر بحبها

وغرر بها اللعين ، وحاول أن يخدعها ، وراودها على عفافها وتطلع الى سلبها من أعز وأغلى ما تملكه عذراء مثلها ! فلما فشل في مسعاه وأعيته الحيل ولم ينل منها وطراً ولم يبلغ مأرباً ، جفاها وهجرها متناسياً وعوده وعهوده وآماله الطوال العراض التي كان يبثها لها بكلماته المعسولة الناعمة ..

فانطوت المسكينة على نفسها تئن من الرزء وتتوجع من النائبة ..

والعجيب الغريب في أمرها أنها كتمت ما في نفسها فلم تبح لانسان بدخلتها ولم تطلع إنساناً على ما يكربها ويرمضها ، ولم يزرها طوسون طوال ايام علتها ، كما انه لم يأت لزيارتها وهي على فراش الموت ، فأماط اللثام بذلك عن خسته ولؤمه وحقارة جبلته !

ومع ذلك فقد غفرت له وصفحت عنه — فقلبها الكبير ما كان ليتسع للحقد والبغضاء !

❁

وألقت برأسها في تلك اللحظة على الوسادة ، وأغمضت عينيها . وسكن نفسها ، وتشنجت عضلاتها . فخيل الينا أنها لفظت انفاسها الأخيرة ، فأعولنا بصوت واحد ، وكأن الحزن والكرب المكبوتين

المفاولين قد وجدا لهما مخرجاً في هذه الصرخة التي نبرنا بها جميعاً !

بيد أننا نزعنا عن اعوالنا ، ولكننا روعنا حينما تقلبت ثانية في مرقدها .. وما عتمت ان حركت يدها صوبنا ، وهزت رأسها الجميل عدة مرات كأنها تدعو لكل واحد منا على حدة ، وقالت وقد عرتها رعشة وانتابتها رعدة :

« الوداع ... الوداع ... الوداع ... إني ذاهبة »

وغشيتها سحابة الموت ! !

# الأديب اليائس



كان الأدب لي بمثابة الماء والهواء أتنجعه في كل مكان وزمان.. وكنت رابع إخوتي نجح جميعهم في مضمار العمل وتقدموا شأواً بعيداً في شتى نواحي الحياة . اما أنا فبقيت في المؤخرة لا آبه بمال إلا ما يقيم الأود ويغني عن المسبغة والمتربة واعتلال الجسد .. ولا اكترث بجاه مزخرف ولا بعروض مؤثل ..

وكتبت وألفت ما شاء الله لي أن أكتب وأن أؤلف ، وطويت ما كتبت وما ألفت وما دبجه يراعي من الروائع طيّ النسيان في درج مظلم معتم من أدراج مكتبتي .. ولفني النسيان كما لف كتبي ، ولم يعرفني احد أو يحفلني إنسان ..

وغمرني اليأس وطغى على قلبي القنوط وأصبحت كالشريد التائه في بيداء لا أول لها ولا آخر !

وكان الاملاق يحفزني أحيانا الى التفكير في وضع حدّ لهذه الحياة التعيسة البـــائسة .. بيد أن نظرة واحدة إلى ما تغص به

مكتبتي من فصول ومقالات وكتب غنية في معانيها ومبانيها كانت تصرفني عن ارتكاب فعلتي وفصم حبل حياتي ..

وكنت أتساءل لم اليأس ما دمت في منشأ عن الطمع والطموح ؟ وكنت أعجب من نفسي .. فأنا متناقض في مبادئي ، متناقض في مشاعري ، متناقض في أهدافي ! أنا ريشة في مهب ريح عاصف ، لا أعرف لي قراراً ولا لقلبي سكينة ولا لحياتي استتباباً ! !

وجمعتني الصدف بشاب في مثل عمري ، أنعم الله عليه بثراء واسع وجاه عريض .. إلا أنه كان لا يمتاز بشيءٍ من النجابة والذّه ، ومع ذلك فكان يصبو إلى قرن بسطته بشهرة ذائعة ، ونعمته بصيت منتشر ، ورخائه بمكانة رفيعة في المجتمع

فلما اطلع على سبب شقوتي ، وأدرك أن الأدب قد جرّ علي المصائب والأشجان ، وأن العقل النير الثاقب قد أدّني وكظني وأسلمني إلى عوامل البؤس والقنوط ، راودته فكرة الشهرة ، وألحت عليه كأشد ما تلحف فكرة ، وصور له خياله ما سوف يكتنف شخصه واسمه من الاحترام والتبجيل إن هو أضفى على ماله وغناه ، أدبي ولوذعيتي .. وان هو عكس على مرآة ثرائه نبوغي وموهبتي ..

وعنّت له فكرة بسطها لي دون تردد . ففجئت بل فزعت ، ولكنني تريثت وتمهلت واستعرضت حالتي وفكرت فيما أنا فيه من ضنك وعوز ، وما يكون عليه حالي إذا ما قبلت عرض رفيق ، فأعطيته نتاج ذهني وعصارة روحي ، وأعطاني هو عوضاً عن أدبي وقلمي ، مالاً ورغداً وبلهنية !

ولم أعتم وقد استفحل الأمر معي وبلغت النفس التراقوة ، ان مالأته على عقلي وظاهرته على فني وصرت أكتب باسمه وأتقاضى جعلاً محترماً يمكنني من العيش في خفض ورخاء

وبدأ الناس يلهجون باسمه ويلغطون بذكره ويوجهون إليه عبارات المديح والاطراء ، ككاتب تحرير له نهجه المستقل ، وله طابعه الخاص ، وله فوق هذا وذاك قوة الابتكار والوضع ! ولاكت الصحف اسمه وبشرت الناس به كقائد من قادة الفكر وكزعيم من زعماء التحرر من أغلال القديم ورجعية القديم وتزمت القديم !

ودرّ علي صيته الجمّ من المال .. ولكنه درّ علي ايضاً الشيء الكثير من الهمّ والغم .. فقد مضضت مضضاً شديداً ، وطفقت أتقلى على نار لاسعة مضطرمة .. فالجميع ينطقون باسم رفيق ويمتدحونه ويطرونه .. أما أنا ! انا الشقي المعذب الذي يسكب مشاعره وأحاسيسه على القرطاس ، ويبيع فنه وموهبته مضطراً مكرهاً .. أما أنا ! أنا الخاثر اللاغب العاثر الحظ ، فلا يعرفني إنسان ، ولا يأبه بي إنسان ، ولا يكترث بحياتي أو موتي إنسان!

وما أنس لا أنس موجة التقريظ التي تضافرت الجرائد العربية قاطبة على القيام بها لقصة « الجهاد » التي نشرها باسمه .. وهل يغرب عن بالي ما دمت حياً أرزق كتاب « العقاب فلسفة » الذي أضفى عليه من رونق الاخراج ما بهر الابصار وسبى العقول ؟ وكيف لا أتذكر تلك القطعة الخالدة من قطع الفن التصويري الرائع التي أبرزها في ثوب « المنفي » والتي شدهت الكتاب والشعراء وأهل

المذاهب ؟ لا . . . لا . . . لا . . . لن تزول هذه الذكريات ! لا . . .
لن أنسى أبناء أنجبتهم وبذلت روحي وحياتي وهنائي وسعادتي في
سبيل تكوينهم هذا التكوين الملهم العجيب

٥

وتعرفت بها في بيت رفيق — تعرفت بخطيبته سارة . . تعرفت
بصورة ناطقة باللطف والدماثة . . بل تعرفت بحورية من حور
الجنان — فخفق قلبي ووجب وجيب الحب ، وأحسست بهناء طاغ
لم يداخل حسي فيما مضى . وتضاعف حبي وهيامي عندما أفضت إلي
بذات نفسها و اطلعتني على سبب حبها وتدلها برفيق . فهي لم تغرم
به كرجل ثري ، بل احبت فيه أدبه . . وهي على هذا لم تحب رفيقاً
بل احبت نفسي ونبوغي وفني ! أجـــل . . أجل . . هي أحبتني
انا ! أنا !

وسولت لي نفسي أن أحدثهـــا بقصتي وأطلعهـــا على حقيقة
امري . . وزينت لي روحي أن أميط لها ما خفي من أمر خطيبها . .
ولكنني ترددت واحجمت وقض مضجعي هذا التردد والاحجام . .
وذكرت رفيقاً وصرت أشنأه وأقلاه . . ولكنني لم أفضح أمره
وأشهره ، حتى لا ينضب هذا المعين الذي لا ينقطع
وكنت أشعر بالشجى في حلقي وبالغصة تكرب حياتي كلما
نخزتني الكراهية واعمى بصري الحقد . . فرفيق رغم تدنيه الى
هذه الوهدة كان ذا نفس طيبة وإخلاص وصدق . وهو مع شغفه
الشديد بالشهرة والصيت مهما كانت طريقه اليهـــا ، ما برح يتخلق
بالحلم وسعة الصدر . . ولا مندوحة لي عن الاعتراف له بهذه الجانب

المضيء من شخصيته وسجيته .. وهذا ما جعلني اتردد واتردد حتى غدا ترددي عبئاً آخر .. او بالأحرى غدا عذاباً ثالثاً بجانب عذابي الاول في فني وعذابي الثاني في حبي ... وهو اشد العذابين واوجعهما وأكثرهما شمولاً ...

وفي معرض حديثي معها ذات يوم عن قصة جديدة أخرجتها باسم رفيق ، طفقت ادافع بحماس عن وجهة رأيه في الناحية النفسانية التي تمخضت عن كارثة هائلة أصابت المجتمع بأسره — وكانت بعض الصحف قد تهجمت على الكاتب وسلقته بنقد لاذع وعابت عليه جرأته وتمرده وثورته وعبثه بالقيم الاجتماعية — ونسيت في غمرة حماسي انني غريب عن القصة مثلها ، فعلقت اصف لها الصور والمشاهد وما يكتنفها وما يكمن وراء كلماتها وجملها من المعاني والاهداف .. ثم انتقلت الى نهاية الفصل الثالث حيث فشل الحبيب في حبه ، فرثا نفسه ورثا حبه بكلمات هي للشعر أقرب منها للنثر ، وما عتمت ان جعلت اتلو على مسمعها هذا القريض المنثور كأني الكاتب لا الناقل ... وأخذت اقول :

جلست مفطور الفؤاد مضطرب الفكر
أقلب الطرف في البحر المنبسط أمامي
وأرسل الى الشمس المائلة للمغيب
نظرات حزن وأسى عميق ..

فأنا ولهان فاقد الحجى ، كالموج
المتلاطم الذي لم يزل يعترك
منذ الخليقة .. وأنا حيران كهذا

الزبد الذي يعلو صفحة اليم ،
ويدور على نفسه بلا غاية ولا نهاية

وها هوذا الطفل يضرج الأفق البعيد
بنور أرجواني وضاء .. وها هوذا
البدر يصاعد ببطء وتؤدة
تحف به النجوم الزهر المتلألئة
كأنها حاشية ملك عظيم

وها هوذا كل شيء يسكن
فالحركة تفتر .. والضوضاء تقل ..
ومقسقة العصافير تخفت وتتلاشى ..
ولا يسمع من بعد إلا أنين الريح
كأنه مع الحزن والأسى على ميعاد

ورحت اتأمل هذه المناظر المتغايرة
واصيخ السمع لتقلب الاصوات وتبدلها
وانظر الى قريب والى بعيد
فلا ارى سوى اشباحاً سوداء
لها انياب ولها اظافر تقطر منها الدماء

في مثل طرفة عين خمدت في قلبي
جذوة اضاءت حناياه ردحاً قصيراً
في مثل ومضة برق خبا ما سطع
في فؤادي من نور وأمل
وانهار ما بنيت على اسس من رمل

لكم أتوق إلى رؤياك يا حبيبي ؟
لكم أتمنى أن اساجلك حديث القلب
فأطلعك على حب معتلج في سويدائه
برّح به .. وعذبه .. وأضناه ..
وصيره الى ما هو أسوأ من العدم

ربّاه ! لماذا حكمت علي بالعدم ؟
لماذا سددت خطاي تجاه هذا
الحب الطاريء الجديد ؟ لماذا
جعلتني اهواها .. من بعيد .. حتى اصبحت
أنشد الفناء ، لأخلص من عاطفة هوجاء ؟ !

أيها البحر ! لتبتلعني امواجك .. لتطويني
أمواهك .. ليقذف بي زبدك المرغي
إلى شاطيء مهجور منعزل
لعلك بذلك تزيل من طريق تلك التي
احببت .. شبحاً ملحاحاً ثقيل الظل

وما أن انتهى كلامي وصمت لساني حتى ألفيت سارة تنظر إلي مبهوتة مذهولة ، لا تكاد تصدق ما وعته أذناها .. فتطاعمت إليها كما يتطلع المذنب إلى قاضيه أو المبتهل إلى باريه ، ثم أحطتها بذراعي وعانقتها عناقاً حاراً طويلا وأمطرتها بقبلاتي المضطرمة المتأججة ، وبثثتها حبي ، وهمست في اذنيها ما يختلج في قلبي من الجوى والوجد

وكانت سارة طيلة ذلك تردد بصوت حالم شجي :

« هو أنت ؟ ! هو أنت ؟ ! لقد أحببتك انت .. لقد تعشقتك

في افكارك ولم تشجني برفيق أية صلة من صلات الحب .. انني أحببتك أنت .. أنت أيها المسكين الذي تحترق كالشمعة .. وما رفيق سوى شبح جامد نفخت فيه من وحيك روحاً ومن إلهامك قلباً ومن فنك جمالا وسحراً .. أنت .. أنت .. هو الذي أحببت وفنيت في حبه ، وانصهرت في بوتقة شخصيته !

وافترقنا على لقاء ، وقفلت راجعاً إلى حجرتي وأنا موزع القلب معذب الضمير ، لا أشعر بالسعادة التي ظننتها ثاوية في عيني سارة وقلبها .. ولا أحس بالهناء الذي تراءى لي كأنه كامن في كلمة من فيها .. فقد خنت العهد ونكثت بالوعد وخذلت الصديق الكريم وطعنته من الخلف طعنة نجلاء ! !

وجفاني الكرى في تلك الليلة ، فلم أعرف للنوم مذاقاً .. ولما تبلج الفجر — وكنت قد عزمت على امر — كتبت رقعة صغيرة لسارة قلت لهـــا فيها :

« أنت من جبلة وأنا من جبلة ، وكلانا لا
« ينتمي إلى الآخر .. انا والقنوط صديقان ،
« وانت والأمل خدنان .. انا اليأس وانت الرجاء ..
« أنا المتربة وانت الرخاء .. انا الفناء
« وانت البقاء .. انا الآلة الطيعة ورفيق
« هو القائد المطاع .. فاهنأي به .. فهو
« لك وانت له .. والوداع !

•

وانا الآن اعيش وحيداً .. شريداً .. بلا قلب .. وبلا روح .. وبلا أمل ! !

# الامير ناظم



كتب على باب مسكنه بخط بارز « الأمير ناظم » فتذكرت شخصاً آخر يدعى الشيخ مهتدي

كانت امه تدعوه بالامير وكانت اخته تدعوه بالامير وكان الشيخ مهتدي يدعوه بالامير !

كنت أمر به فيصعر خده في أنفة وكبرياء .. فاذا تواضع وكلمني نطق الكلمات في ترفع واستعلاء !

كان يمشي مختالا شأنه شأن الامراء .. وكان يط بشفتيه إذا شاء الكلام ، حتى لتحسبه يسحب الكلمة من فيه سحباً شديداً !

فهو أمير ولا غرو .. هو أمـــير بحق .. ورغم الأنوف .. وبشهادة الشيخ مهتدي ..

كان شحيحاً يدعي الكرم .. وجاهلاً يدعي العلم .. وغبيـــاً يدعي الذكاء .. وثقيل الظل .. يدعي خفة الروح !

وكان هزيلاً شاحب اللون مفرط السقم ، لا يأكل الا مضطراً ،

ولا يشبع جوعه الا مرغماً .. وينقم في قرارة نفسه على الباري ، لأنه سبحانه وتعالى استنّ الآلة البشرية سنة الأكل والشرب إذا ما شاء المرء أن يبقى على قيد الحياة ..

وجمع المال وذخر الاصفر الرنان ، وزاد اتساع حدقتيه .. وزاد اتساع جيبه .. وتضاعف جشعه .. وتضاعف طمعه !

وتراكمت الاموال في خزانته .. وعلت طبقات الذهب طبقة فوق طبقة ، فوق طبقة .. ومع ذلك فلم يتبدل موقفه من البخل الى الجود ، ولا من الشحّ الى الكرم .. بل زاد تفانياً في التقتير على نفسه والتضييق على أهله ، والتمسك بالامارة ، والتهافت على الامارة !

كان يخاف الماء .. أو يخاف على الماء .. أو يخاف من الماء .. لهذا فما كان الماء يصيب من جسده الا أطراف أصابعه وأطراف قدميه ! وكان يخاف شرّة البرد .. لهذا فما كان يخلع ملابسه الداخلية الا متى تحول لونها من البياض الى السواد !

وكان على خصام متصل مع الحلاق ، لا يقصده الا لماماً .. ولا يقرب دكانه الا غباً .. ولا يسلم له لمته إلا متى اختلط أمره على الناس ، فلم يعودوا يعرفون ان كان امرأة ام رجلاً !

وكان الصدق عدوه اللدود .. فاذا قال أريد فاعلم انه لا يريد .. واذا قال بلى ، فاعلم انه يعني لا .. واذا قال سوف أفعل ، فاعلم أنه سوف لا يفعل !

كان يتاجر بالأمتعة البالية فيشتري الرث من الأسمال فيبيعها .. ويجمع القطع الصدأة من الحديد فيبيعها .. ويجوب

المدن والأمصار بحثاً عن تجارته هذه .. ومع ذلك فهو يصر على أنه أمير كامل .. والشيخ مهتدي يصر ايضاً على أنه أكمل الشيوخ ..

وكانت حياته في منزله حياة ركود ، أو حياة شلل وجمود .. فاذا تأففت زوجه من الملل وتبرمت وطلبت الافراج عنهـــا والانطلاق من محبسها ، جاب بها ارباض المدينة وقفل راجعاً في صمت وسكينة ، وهو لا يفتأ يحدثها عن فضيلة الابتعاد عن الملأ .. ومنافع استنشاق الهواء الطلق .. والمتعة المجتنـاة من الاختلاء بالطبيعة ومناجاة البحر والسماء !

وإذا ما أم داره انسان ، تلدد متحيراً ، وتململ مستعيذاً وحملق بناظريه متجهماً ، وانقبلت سحنته من الرضى الى الاشمئزاز ، ومن الدعة الى الاضطراب ، حتى إذا ما فطن الزائر الى ما ألم بصاحب الدار من الضيق والضجر ، انسحب غير آسف . وتنفس صاحبنا الامير الصعداء وكأنه القى عن كاهله أثقل الاعباء !

أما ولده فقد كان يغدق عليه مختلف الهدايا والالعاب .. وما اكثر ما شوهد الطفل مفترشاً الغبراء وقد تراكمت حوله الأحذية من كل جنس ونوع وحجم !

٥

وترعرع ابنه كأحسن ما يكون الشباب .. فلم تنم في قلبـه خلة واحدة من خلال أبيه .. فهو جميل وسيم فارع الطول ممتلىء الجسم ، يتأنق في ملبسه ولا يرتدي إلاّ أفخر الثيـاب واحسنها صنعاً .. وتأفف الامير من طلبات ولده المتتاليه فعنفه وزجره ولذعه بكلام كالسياط .. بيد أن الشاب العنيد ما كان لتلين له

قناة .. بل أعرض عن أبيه وأغضى عن نصائحه ، ولم يلزم جادة الاقتصاد والتوفير التي تشبث بها أبوه ..

وثالثة الأثافي أنه متى احتاج الى مبلغ من المال كان لا يترك أباه قبل أن يحصل على المبلغ كله ..

وأنهى الفتى دراسته وأصبح شاباً مكتمل العود قوي البنيلة ، عزيز النفس ، يفكر كما يفكر الرجال ويأخذ على ابيه بخله وتقتيره واتضاع اخلاقه وطباعه

وكانت نفسه الطيبه سبباً في جزع الوالد المقتر وفزعه .. وكانت حفاوته البالغة بالأصدقاء والخلان مصدر نصب وعناء واضطراب للامير الذي أضاع صوابه اسراف وحيده !

ولم تقو رذيلته على تحدي فضيلة ابنه .. ولم يقو بخله على احتمال سجود أبنه .. ولم يقو ظلام كوكبه على الصمود تلقاء نور كوكب ابنه .. فعراه الانطفاء وانطوى الامـــير المهيض على نفسه يبكي ويندب سوء حظه .. كأنه فقد دنياه وآخرته ...

وما انفكت نفسه تشده الى اسفل ونفس ولده ترتفـع به الى أعلى ، حتى أصبح الاب والابن على طرفي نقيض ، وحتى اصبح الاول غائصاً في الثرى والآخر متربعاً على الجودي ..

وحاول الامير أن يجر ابنه اليه .. حاول أن يهبط بابنه من ذروته السامقة .. حاول أن يغري ابنه على تخطي الحاجز الذي يفصل بينهما ، ولكنه لم يوفق في مساعيه وبقي الفتى قوياً راسخاً كالطود !

واحتقر الفتى أباه واستهجن أفعاله ، وإن لم يظهر له الاحتقار ..

وتجنب ذكر ابيه الخالي من حميد الصفات .. وأقام في أعماق نفسه مبدأ سامياً يجاهد في سبيله ويناضل في الذود عنه ، ويناصب كل من يحاول النيل منه العداء ولو كان ذلك الانسان أبوه !

وطمح إلى الارتقاء ، وتتطلع الى السماء .. وصفت نفسه حتى غدت شفافه نقية كالمرآة

وصور للامير خياله السقيم أن ولده أخطأ الجادة وحـــاد عن السراط .. والا لما اختلف عنه في الخلق والطبع .. فشرع يهاجمه دون هوادة ولا رحمة ، وشرع — كما قال — يحـــاول تقويم اعوجاجه .. فكان كالظلمة تهاجم النور ، وكان بمثابة الاعوجاج يناجز الاستقامة العداء

لقد تعلم الفتى ما جهله أبوه الامير .. فاقتفى أثر الهدى وسار في جادة الحق لا يأبه بأبيه ولا يكترث بشذوذ أبيه ..

وكانا على خصام دائم — الشاب الشرخ يريـد أن يظهر بمظهر يليق به والاب المتهافت يشعر كلما نقد ابنه شيئاً من المال كأنه يقتلع قلبه من جنبه !

وقوي الشاب أخيراً على ابيه واشتدت وطأته عليه ، وهكذا تحولت ايامه شيئاً فشيئاً الى سم زعاف لا يمضي يوم إلا ويفعل هذا السم فعله في قلب الرجل ولبه ..

وتزعزع اعتقاده .. وأصبح لا يرى الا ساهماً مكدوداً يحملق كالمعتوه ويتمتم بكلمات لا معنى لها ..

وكانت ثروته إبان ذلك تنمو وتزداد .. وكان لا يترك فرصة تمر الا واغتنمها لمضاعفة هذا الثراء الواسع العريض

ولكنه لم يقتنع .. بل ازدادت شراهته وتفاقم نهمه ..

وطرق الباب في أحد الايام طارق، فلما فتحه ، ناوله الغريب ايصالاً بمبلغ كبير من المال ، على أنه ثمن أثاث جديد للبيت أوصى عليه ابنه فطار صوابه واندفع يصخب ويضج ثم انطلق من البيت لا يلوي ..

وغاب ثلاثة ايام لم يره فيها أحد ، وجزع الشاب وأوجس خيفة من تغيب أبيه ، فبث العيون والارصاد ، ثم طلب المساعدة والعون من رجال الامن ..

ووجده رجال الشرطة في صباح اليوم الرابع على طوار طريق مهجور ... وجدوه مطروحاً على الارض وقد التصقت ركبتاه بصدره وضم راحتيه على رغيف أسود يابس لا تأكله الكلاب !!!

❁

وذرف الشيخ مهتدي حسرات التحسر والتفجع على عشيره الامير .. وما يزال حتى اليوم يندبه ويرثيه ويقول فيه :

« واأسفاه على الامير .. لقد كان في الدنيا اميراً وشيخاً تشع روحاهما بنور العقل .. اما الآن فقد ذهب الامير وبقي الشيخ .. أي ذهب نصف العقل وبقي نصفه ! »

# محكمة الشعب

❁

الجلجل « مارس » إله القتال يصول ويجول .. وصوته يلعلع كأنه النفخ في الصور .. والوغى مشتعل الأوار والدنيا مضطرمة في حرب ضروس بين الباطل والحق .. او بين الباطل والباطل .. او بين الحق والحق ! !

والحديد يقرع الحديد .. والنار تلتحم بالنار .. والطائرات تئز في عنان السماء والدبابات تخور وتهدر وتدب على الارض .. والبوارج المدججة المثقلة بآلات الفناء تقصف بعضها بعضاً في غضب وجنون فتتمزق شر ممزق ويبتلع اليم ما بدا منذ لحظات ازلياً سرمدياً !

والكتل البشرية تتناوش وتتصارع ، وتتنازع البقاء والسيادة .. والسلطان والجاه .. وتتنازع ايضاً التفرد بالحول والطول ..

والشباب الناضر يساق الى النطع ليقتات من يضيعه شرذمة من الطغاة .. ولتمتلىء من تضحيته خزائن رهط من السماسرة

والدعاة .. ولتنعم أعين شياطين البشرية الذين لا يهنأ لهم عيش إلا باراقة الدماء ، ولا يصفوا لهم بال الا بتمزيق الاجسام وتفتيت الاشلاء ...

والشباب اليافع يموت بالمئات والألوف ، فيخلد ذكراه تجار الحرب بسفسطة تافهة منمقة وباكاليل من الغار توضع على قبر الجندي المجهول ، ويدفع ثمنها ابن الشعب .. من خزانة الشعب .. من دم الشعب .. ويرجع المتخمون الذين ذرفوا دموع التماسيح على القبر المجهول ، ليستأنفوا همومهم بالخلق ، وليعاودوا لعبة الشطرنج فيأكل هذا ذاك ، ويحطم هذا ذاك ، ويقضي هذا على ذاك .. وتصفر اللوحة من الشخوص والاحجار ، ويبقى اللاعبان في خير حال ! !

❁

ضحك محدثنا الضابط ضحكة لاذعة واستطرد :

هذه هي الحرب ، لا مغنم للشعب منها ولا ظفر لأمة مهما كان انتصارها كاملاً شاملاً ، ومهما كان اندحار عدوها تاماً مطبقاً ...

بيد انه لا مندوحة للانسان السلس القياد ما دام يسلم زمامه لوهط من ذوي الاهواء — أن ينزل على حكم القدر ، فيخوض المعاوك ويقدم جسده قرباناً على مذبح الوطنية أو القومية أو المذهبية . أو بالاحرى على مذبح شهوات الدول الجبارة المتنمرة !

ودوى النفير العام ، ودعينا الى الجهاد — وقد تمالأت الدنيا علينا — فلبينا النداء ونزلنا الى الميدان ، وخضنا الوطيس ، وتطاحنا وتناحرنا .. حتى مادت الارض تحت اقدامنا وكادت تسيخ وتنخسف بنا !

ومات منا ومنهم الوف الشباب ، وعقدت الهدنة ، او فرضت علينا هدنة على دخن ! ! وأبنا الى ديارنا نلعق دماءنا ونضمد جراحنا ونواصل السعي في سبيل الرزق

وكنت أنا عاشر ثلة من الضبـــاط توثقت بيننـا عرى المحبة والألفة والأخاء في الميدان ، ووشجت قلوبنا روابط الجهاد المقدس في سبيل الواجب والوطن

وكنا نعلم الشيء الكثير عن الفساد الذي عم الجهاز الحكومي في المملكة ، وكنا نسمع عن المثالب والمخازي التي يندى لهـــا الجبين ..

وكان يوغر صدورنا ويملأها حفيظة هذا الانحـــلال الذي استشرى شره واستفحل أمره .. ومع ذلك فلم نك لنظن قط أن الخسة تبلغ بالناس شأواً يستبيحون معه الايقاع بوطنهم وطعنـــه الطعنة النجلاء بنصل الخيانة والغدر ، وقذف زهرة شبابه الى أتون الهلاك وهم خاو من السلاح الصالح ! لم نكن نجرأ على الظن بأن يسفّ انسان مهما تناهى في الضعة ، وان يسفل مهما تمادى في الضلال وتكالب على المتعه والفجور فيغش قومه ويودي ببني قومه ويسلمهم الى العطب دون وازع من ضمير أو شرف !

فلما نقلنا الى ديارنا سمعنا كثيراً من الهمس ، ثم تعالى الهمس حتى غدا لغطاً . فارتبنا وشككنا ، وحدسنا وتكهنا ، وآلينا بعد لأي ان نبحث ونتقصى ، وان ننتزع الحقائق والبراهين انتزاعاً من أحشاء هذا الخضم المتلاطم من الشائعات والاقاويل

وامتخضنا الاقوال واستخرجنا الحقائق ولم نلبث ان أفرزنا

النافع الصالح من الضار الطالح . .

ثم تطلعت نفوسنا إلى معرفة الخائن الحقيقي الذي أوسع الامة تنكيلاً وأذاق زهرتها من محاله عذابا وسعيراً !

ثم حذفنا من قائمة السوء من تخلف عن كاهله المسؤولية ، أو من كان دوره ثانوياً ، أو من كان مسوداً لا سيداً مسئولاً !

واستبقينا في القائمة السوداء من يخلق التعجيل بعاقبتهم على ما جنته أيديهم ، وجره سوء تدبيرهم

ووطدنا العزم بعد ان اكتملت البراهين وامتلأت لائحة الاتهام أن نجعل منهم عبرة لمن يعتبر

وكان عددهم سبعة رجال وثلاث نساء . وفي ليلة حالكة الاهاب دامسة الجلباب ، طرقت أبواب عشرة ، وجيء بالخائنين الى بناء لا ترقى إليه الشبهات . فأدخلوا الى قاعة فسيحة مظلمة ، ثم عكس من سقف القاعة نور احمر على منصة عالية جلس عليها ثلاثة رجال اشتملوا برداء أسود لا يظهر منه إلا عيونهم

وأجلس المتهمون على مقاعد خشبية ودخل النائب العام وهو متلفع بمعطف أحمر رمزاً للدم المسفوح

وتكلم الرئيس فقال :

تفتتح محكمة الشعب هذه الجلسة الاستثنائية لقاضاة من اساء الى الحقوق الوطنية ، او خدش سمعة الأمة ، او تآمر على سلامة وكيان الشعب . ولقد انتخبت من قبل الشعب لأترأس هذه المحكمة العليا وأمثله في (وطنيته)

عضو اليمين : وزكاني الشعب لأنوب عنه في معاقبة من ثلم شرفه ولأمثله في (قوميته)

عضو اليسار: واصطفاني الشعب ابو السلطات لأساهم في سحق كل من نكب طريق الاخلاص ولأمثله في ( اخلاصه )

الوطنية : ايها النائب العام ، ان المحكمة تؤثر الأيجاز وتتوخى الصراحة والصدق ، وترغب في سماع الكلام الخالي من الغموض والابهام .. فابسط امامنا صفحة إتهامك ، وبين لنا ما في جعبتك من الأدلة والبيانات ، حتى نكوّن على ضوئها قرارنا الخطير ...

القومية : لأن محكمة الشعب أيها النائب المحترم ، هي أذن الشعب الواعية ، ولأن الأمة المحطمة قد ملت العبث والاستهتار الذين عانت من جرائمها فيما سلف كل غبن وحيف ...

النائب العام: يا محكمة الشعب المبجلة .. أيها الرئيس الموقر .. يا سعادة العضوين المحترمين .. يشق علي ان ألصق تهمة الخيانة العظمى بهؤلاء المذنبين .. بيد أن البينات المتجمعة لدي ، والأدلة المثبتة للادانة التي تيسرت وأصبحت في متناول اليد لم تبق في قلبي مجالا للشفقة والرحمة والرثاء ! ثلاث بينات فحسب أدلي بها وأضعها أمام منصة العدل ، ومن ثم أطلب الاستماع لاقوال الشهود .. وهذه البينات التي اشرت اليها تقتصر على ثلاثة أسئلة أطرحها على الوطنية والقومية والاخلاص :

النائب العام: أيتها الوطنية التي مرغ وجهك وعفّر محياك !

مَن مِن المتهمين أرضاك وأكرمك وعزز جانبك وشدّ أزرك ودافع عنك ولم يفد من ترنه باسمك ؟

الوطنية : خذلني الجميع ، ولم يفز أحد من هؤلاء المتهمين ببركتي ودعائي!

النائب العام : أيتها القومية ! مَن مِن المتهمين الماثلين أمام المحكمة المؤيدة من الشعب جاهد في سبيل اسمك ، ودافع عنك ، ودفع الويلات عن ساحتك ، وأثبط المؤامرات التي حيكت للنيل من شرفك ؟ من منهم اقتدى بالأوائل من الأبطال فكرس حياته لخدمتك ووقفها عليك ؟ !

القومية : خيب الجميع فألي بعد أن تغنوا باسمي ، وبعد أن ملأوا الدنيا ضجة وصياحاً .. وقد باعوني واشتروني وكأني عبد رقّ يتصرفون بي في سوق النخاسة ويساومون على ثمني !

النائب العام : أيها الاخلاص ! هل أخلص لك المتهمون ومحضوك الود والصدق ؟ وهل استجابوا عندما استفثت بهم ؟ !

الاخلاص : تخلوا عني ولم يحفلوا بي .. وكانت المآرب والغايات الشخصية الخسيسة ، والمطامع الدنيئة تبعدهم عني وتنئا بهم عن حظيرتي ! وكان انيني يزيدهم بهجة ومسرة ! !

النائب العام : هذا هو اتهامي ايتها المحكمة العظيمة .. بيد أني زيادة في الاثبات أطلب ان يمثل امامك بعض الشهود ، وسأقتصر على اربعة منهم .. فالقصة واحدة وان

اختلفت طريقة روايتها

الوطنية : لا تثريب عليك ، فمن هم شهودك ؟

النائب العام: الأم يا مولاي وفتاة الوطن واليتيم والجندي !

( وينشق باب في تلك الاثناء ، ويهب منه ريح صرصر شديد على وجوه المتهمين . . ثم يبدو ظل يتقدم وئيداً ويقترب ببطء . . وما يتم الظل الغامض أن يلج القاعة المعتمة فإذا به امرأة متسربلة بالسواد مطرقة الى الأرض )

الوطنية : أيتها الأم . . أيتها الانسانة الفانية . . اتستطيعين الكلام ؟ أم أغنيك عن مشقة الافضاء بما في نفسك رحمة بشخصك الضعيف ؟

الأم : انا طوع أمرك يا سيدي

الوطنية : تكلمي إذاً . . ماذا تعرفين عن المتهمين ؟ !

الأم : هؤلاء المتهمون ؟ ! مـاذا اعرف عنهم ؟ ! الشيء الكثير . . ولكنني أقتصر على النزر اليسير . . فهم الضراوة والجشع والطمع والأثرة ممثلة في شخوصهم ! وهم التنافر والتنابذ والحسد والقلى متجسمة فيهم ! كل منهم أظهر لي من الود ما يعجز اللسان عن وصفه ! وكل منهم اصطنع الغيرة علي وأبدى استعداده للدفاع عني . . ولكن . . عندما أغار الوحش الضاري على أولادي لم يتحرجوا عن مشاركته في تمزيق اجسامهم والتهام أشلائهم !

الوطنية : ألم يدافع أولادك عن عرضك ومالك وحياتك ؟

الأم : أجل! دافعوا بكل ما أوتوا من قوة وعزم.. وقبل ان يلحقني هذا الأذى ، وقبل ان تتقلم الأظافر في يدي وأيدي أولادي ، أهبت بهؤلاء المتهمين فلم يبروا بي وأبوا أن يسمعوني ! وعندما أصيبت حماطة قلبي بالطعنة النجلاء ، كانوا واقفين في مأمن يشاهدون مصرعي ويتفرجون على الموت يخترمني ! هذا كل ما عندي يا مولاي . آه .. أنفاسي تتقطع وتتحشرج في صدري.. دعني أجلس دعني استريح ..

الوطنية : أقعدي يا امرأة .. لقد روعتني فاجعتك وأفزعتني مصيبتك .. ان لكلامك صدى عميق الغور ، ويخيل لي أنه رجع لأصوات بغيك المقتولين الذين لم يؤخذ بثأرهم .. والذين يصيح الطائر المخلف من رؤوسهم : اسقوني ... اسقوني ... أيها النائب العام مَن مِن الشهود تطلب ؟

النائب العام: فتاة الوطن ..

الوطنية : أين فتاة الوطن ؟

( ينشق الباب ثانية ويهب الريح البارد العاصف وتدخل فتاة ناحلة شاحبة يلوح على محياها الضعف والسقم)

الوطنية : تكلمي يا فتاة !

فتاة الوطن: انا الجمال .. أنا الحسن .. أنا الأمنية .. أنا العزة والكرامة.. كنت هيفاء .. كالبدر التمّ وكنت قوية

ادلّ بقوتي ونشاطي وأتيه بحماتي وأبطالي .. وكنت أبث في صدورهم الحماس والاستبسال .. وتحملت العذاب وشاطروني التضحية وكان رجالي صناديد ذوي جرأة وبأس ، ولكنهم ما استطاعوا الصمود دون ذخيرة ولا مدد ، وبسلاح فاسد مشئوم .. فلما ازفت الساعة المخيفة قتل الحماة الكماة !

الوطنية : ويّ ! وما السبب ؟

فتاة الوطن: خيانة هؤلاء المتهمين وتهافتهم على الشهوة المذلة .. لقد استنصرتهم فلم ينصرني أحد منهم ، واستنجدت بهم فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار .. ولم يكن عندي من السلاح ما أقابل به العدو عندما زحفت في بهيم الليل جيوشه كالمردة ، وعندما تقدمت دباباته تضج وتهدر ، وعندما دمدمت مدافعها بدوي وتزأر ، وعندما صمت رشاشاته الآذان وأزعجت طائراته كأنها شياطين الجان ...

الوطنية : كفى ... كفى ... أين اليتيم ؟ ( يدخل غلامٌ عاري القدمين مكشوف الصدر يتلفع بأسمال بالية خلقه )

الوطنية : أيها الغلام هل تتذكر شيئاً ؟

اليتيم : أتذكر .. أجل أتذكر أبي وهو يودعني .. وأشهر بقبلاته تغمرني .. أتذكر أبي يغادرني .. وأتذكره مسجىً على سريره فاقد الحركة والحياة .. وأتذكر الناعي يقول لأمي « لقد انفجرت بندقيته في يده

فأودت بحياته .. وأتذكر ان بندقيته هذه قدمها له هؤلاء ! ( وأشار بيده الى المتهمين )

ويظهر فجأة جندي أو حطام جندي، يتكىء على عصا ويظعن بمشيته وقد عصب رأسه بضمادة ملطخة بالدماء والأوحال

النائب العام: ها هو الجندي يا سيدي الرئيس .. الجندي الذي خفر عهده المتهمون ..

الجندي : أنا رهن إشارتك يا مولاي

الوطنية : ما اسمك يا هذا ؟

الجندي : كنت أدعى الجهاد يا سيدي .. أما الآن فقد زالت صفتي وكنيتي !

الاخلاص : ماذا شاهدت في الميادين ؟

الجندي : شاهدت ميلاد مجدي وموته !

القومية : وكيف خطر في بالك ان تخوض غمار الحرب ووراءك أسرة وأطفال ؟

الجندي : لم افكر في القتال إلا عندما سمعت من الاقوال ما أفعم قلبي بالبهجة والحبور ..

ولم أخض المعمعان إلا عندما غنت نساء الوطن أغنية المجد والخلود !

القومية : وماذا رأيت هناك ؟

الجندي : رأيت القومية في اول الأمر متسربلة حلل الشجاعة والتضحية . وكنا نسمع ونحن في الميادين القصص

الرائعة عن التناسق والانسجام في جهود المتهمين ، وعن تضافرهم على الخير ، فنحمد الله ونبتهل اليه ونحن في حومة القتال ، أن يدعم هذه الأواصر ويطيل مدة التآخي ويديمها .. ولكن .. شيئاً فشيئاً بدأت عيوننا تتفتح على الحقيقة المرة ساعة احتجنا الى السلاح فلم يرسلوا إلا" الفاسد منه ، والى الرجال فلم يعضدونا إلا" بالقليل منهم .. كنا قلة يا سيدي ولكن الله جاد علينا بشباب لهم شجاعة الليوث .. وكان يخيل إلي والمعارك محتدمة بأننا فرد واحد يعمل لهدف واحد !

الوطنية : فماذا اخركم عن اوطاركم ؟

الجندي : قعد بنا المال والسلاح كما أسلفت عن إبراز بأسنا .. فلو اتاحه لنا المتهمون لتمسكنا بكل شبر من البلاد ولدمرنا العدو وقهرناه وغلبناه على امره ولكن — كما قلت — كنت أدعى الجهاد .. اما الآن فأنا إسم علا مسمى ! او ظل مارد جبار ذهب المارد وبقي الظل يهيم على وجهه من الخزي والعار !

النائب العام : أيتها المحكمة التي توفرت فيك كل شروط العدالة القدسية ، والتي تمثل بأعضائها ارادة الشعب وتضحيته ومشيئته ! إن اللجة ذهبت بآلاف المحاربين ، إن المحن القاسية التي اصابت الشاهد الأخير ولم تبق منه الا أثر انسان لهي الدليل الكافي على ان إيداع البلاد أمانة

في يد غير ثقة ، قد جرّت هذه الرزايا !

وإن من بدع المتهمين ايضاً الكذب والتمويه ، فبينما هم في خلاف على الأسلاب لا يفتر ولا يخف ، إذ بهم يرجفون على الشعب بأنهم متفقون في الرأي والمبدأ والغاية ! وبينما هم يأفكون على الأمة فيبدون أمامها أغرياء مخلصين ، إذا بالأطماع تثيرهم ، فتنهدم الألفة المزعومة ، ويتقوض الاتحاد ... ثم تنكشف السرائر وتظهر الخبايا ، فإذا بالطمع والحسد والغيرة هي موطن الداء وأصل البلاء .. ثم تعصف الريح بترهاتهم وأهوائهم ، فلا يبقى اي أثر لما صرحوا به وأكدوه ، ووعدوا الأمة والشعب بتنفيذه ! ويخيل إلي أنه راق لهم ان يشاهدوا هذا الشعب الكريم يتضور من الألم ، ويتألم من العذاب ، ويئن تحت ضربات العدو والصديق على السواء ! !

يا محكمة الشعب ! يا من تمثلت فيك الوطنية والقومية والاخلاص .. ايتها القوة العادلة المنتقمة الجبارة المنبثقة من ملايين القلوب والصدور ! هذه قضية الشعب الأولى أطرحها أمامك لتبتي فيها ، وفق العدل والحق والانصاف .. !

الوطنية : أللهم ! لا تزل القدم والهمنا ما فيه الحق والعدل والانصاف .. حتى لا يظلم بريء ويغضى عن مجرم !!

الوطنية : إن محكمة الشعب المنعقدة بمشيئة الله .. تحت ظل

الشعب.. والمؤلفة من الوطنية والقومية والأخلاص..
تُدين المتهمين .. وترفع بخشوع وتهيب أوراقهم الى
الديان الاكبر !

ونظر إلي المخبر بهذه القصة التي اماطت اللثـــام عن
أبشع مأساة شهدتها البشرية منذ الأزل ، وقال :
« لقد تم تنفيـذ الحكم في أربعة من المجرمين ..
وان سبعـــة منهم آخرين لا يزالون ينتظرون
مصيرهم المحتوم ! !

# كيف تزوجت

❁

كنت مغرقة في التفكير في ذلك اليوم الذي لن يغيب ذكره عن بالي ، أقلب الامر الخطير على مختلف وجوهه ، وأضرب أخماساً لأسداس ، فلا أجد حلاً لمعضلتي ، ولا ينشرح خاطري في سبيل مستقيم الا وتتعدد السبل وتتعقد . وأوشكت لولا بقية من قوة مضعضعة وبقية من جلد واهن ان أستسلم لليأس الذي كان يحاول الاطباق علي ونشب مخالبه في سويدائي

ومع أن الفصل كان صيفاً ، والشمس المشرقة ترسل خيوطها الذهبية خلال الأشجار ، فتبعث الدفء في كل كائن حي ، إلا أني أحسست بالقشعريرة الباردة تسري في بدني فترتجف منها أوصالي..

لقد حدجني خطيبي في ذلك اليوم بنظرة مفعمة باللوم والتأنيب وقال :

« فأنت إذاً ترومين فصم خطبتنا ونكث العهد المقدس الذي يربطنا ؟ »

فأجبته وانا مطرقة برأسي مغضية بطرفي :

« أناشدك الله أن تتئد في إصدار الحكم ، وتتريث في إتهامي بما أنا بريئة منه ... ولكنك متوسط الحال تنوء بمسؤوليات كثيرة وليس من معيل لأمك وأبيك سواك ، فمتى بعلت بك تضاعفت واجباتك ولا إخالك حينذاك ألا مستجيباً نداعي اليأس راضخاً للهم والغم ، فيضعف الحب ويهزل ، وتنقلب الحياة مسرحاً لأبشع مهزلة ... »

فتنهد سعيد من كبد حرى وقال وهو يكاد يغص بريقه :

« إنك على حق فواجباتي كثيرة ومسؤولياتي باهظة بيد اني أود ان أتأكد من إخلاصك .. فهل تحبينني ؟ هل تحبينني ؟ »

فاجبته وانا أنتفض من اللوعة :

« إنني أحبك يا سعيداً حباً يجل عن الشبهات ويفوق الوصف والادراك »

قال : « فأنا إذا متشبث بعزمي على الزواج منك ، ولن أتخلى عنك مهما كانت القيود والسدود ... أنت صغيرة وجميلة ، وفي وسعك الانتظار سنة أخرى ، تكونين من بعدها حرة التصرف وتصبحين في حلّ من أي قيود ومواثيق »

فترددت هنيهة ثم أجبته قائلة :

« لا يا سعيد ، لن أوافق على هذا الرأي .. لقد تعثرت خطانا منذ البدء ، فلنفترق بسلام ، وليذهب كل منا في سبيله ! »

لا أدري كيف طاوعني قلبي في تلك الساعة على النطق بهذه الكلمات ، الا أنني عندما تأملت وجهه ، أدركت فوراً ان كل

كلمة فهت بها في تلك اللحظة كانت بمثابة مطرقة تهوي على أم رأسه، فقد شحب لونه، وجحظت عيناه، وجمد في مكانه مشدوهاً مبهوتاً لا يقوى على الحركة

ومضت ايام وانا لا أبرح ارى فيها وجه سعيـــد، وأقرأ في صفحته عبارات الألم الذي مزق صدره وجرح فؤاده

ولما ضيق الفكر على الخناق ذات يوم، سعيت إلى حديقة البلدة في أصيله وفي نفسي اشياء كثيرة وفي ذهني خواطر مختلفة متضاربة تتنازعني وتمضني — فأنا أحب سعيداً رغم ما بدا مني، وانا لا اطيق البعد عنه مع اني صددته عني .. وانا محتارة في أمري مشككة في ما ينفعني ويضر بي .. أنظر الى بعيد لعلي أرى ما يكنه الغيب، فلا أرى ما يجلو لى المستقبل، ولا أبصر الا غيوماً متلبـــدة مكفهرة .. فماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ! !

وأغمضت عيني حتى لا أرى ما نزل بي من النقم . ولما فتحتهما بعد دقائق أبصرت رجلاً شخت الخلقة ابيض الناصية يخاصر امرأة تخطت طور الشباب بسنين عديدة ..

وكانا يمشيان بتؤدة ورفق وقد تخاصرا وتلاصقا وكأنهما لم يعدوا طور الشباب .. وكانا يتبادلان النظرات والضحـــكات والهمسات الخافتات كأنهما عاشقان برح بهما الوجد ولعجهما الشوق..

ولما جلسا قريباً مني، ألقى علي الرجل نظرة فاحصة وقال :

« يخيل الي يا سيدتي الصغيرة انك تعانين كثيراً من التفكير؟»

فأجبته مشفقة من تدخله :

« لكل انسان يا سيدي خواطره، فأبتهل اليك ان تدعني

وشأني ! »

فحدجته زوجته بنظرة عتاب ولوم وقالت : «ألم أحذرك من التدخل فيما لا يعنيك ؟ الم أنبهـــك الى لزوم حدودك حتى لا تتعرض للفشل والتقريع ؟ »

فضحك الشيخ ضحكةً لطيفةً وقال :

« رويدك يا عزيزتي ، ما انا بالفضولي ولا بالمتطفل ، إلا اني قرأت في اسارير هذه الآنسة ما انبأني بأنها عرضة للحزن والشجن ، فاحببت ان افرج عنها بالحديث الا انني لا اجد مندوحـــة عن الاعتذار لها عما بدر مني »

فرنت اليه زوجته بعطف ومحبة وقالت وهي تلتصق به :

« كنت في مثل سنك يا آنسة .. أجل ! كنت في مثل سنك عندما التقيت به .. اليس كذلك يا عزيزي ؟ كنت في مثل سنك وكان هو يكبرني بعشر سنين . وتزوجنا بعد شهر ، فذقنـــا الأمرين وقاسينا شظف العيش ، ولكننا احتملنا الصعاب بصبر وجلد وايمان ، حتى اذا انفرجت الغمة وزال الضنك .. ألفينا حبنا سليماً قوياً لم يضعف منه عوزنا واملاقنا ! »

وضحكت العجوز واستتلت !

« تباً لي ! لم أثقل عليك بهذا الكلام الذي لا طائل فيه ؟ »

فطوقها زوجها بذراعه وقال :

« تكلمي .. تكلمي .. ذكريني بتلك الأيام ، صفي لي تعاوننا على بذل وسعنا لنجتاز العقبات ونذلل الصعوبات بسلاح مـــاض صقيل — هو ايماننا وحبنا واعتقادنا بان الله ياخذ بيد المخلص الوفي ! »

فقالت : « أجل .. أجل .. اذكر كل شيء ، كما لو انه جرى بالأمس القريب .. أذكر كل شيء يا حبيبي ، وأذكر جهـــادك ونضالك وشجاعتك ونشاطك في العمل ، وتقدمك من نجـاح الى الى نجاح ، ومن فلاح الى فلاح ، حتى استتبّ بنا الأمر اخيراً ، وفزنا بالراحة بعد العناء ، وظفرنا بالبلهنية بعد الضيق والشقاء !

ولما ودعاني ومضيا ، تحولت بنظري اجوس خلال الحديقـة وقد انبجست عبراتي وخفق فؤادي وشعرت بان حملاً ثقيلاً قـد نزعه هذان الشيخان عن عاتقي .. فسقياً لهما ، سقياً لهما من انسانين كاملين وبطلين اسعدتهما شجاعتهما ومضاء عزيمتهما .. سقياً لهما لانهما نفّسا كربي وأزالا وصبي وفتحا امامي كوّة شعّ منها نور الحقيقة كاعظم ما يشعّ نور ..

وتتبعت بنظري ظل الشيخين الحبيبين ، ولم أعتم أن قفزت من مكاني وهرولت الى مسكن سعيد ، فلم أجده . فلما سألت عنه قيل لي بأنه غادر الديار الى امريكا وترك كتاباً باسمي ..

وقرأت كلمته الرقيقة التي ضمنهـا كل مشاعره ، فلهفت نفسي وبرح بقلبي الأسى .. وقابلت بيني وبينه ، فألفيته كبيراً بقدر ما انا صغيرة ، وألفيته متشامخاً بقدر ما انا متناهية في الضعة ، فقد أنهى اليّ بانه سافر الى امريكا من اجلي .. سافر ليشق له طريقـاً ويجمع مالاً .. ثم ليعود من بعد موفور الكرامة عزيز الجانب .. وتوسل الي في كتابه ان أنتظر أوبته فلا اختار رجلاً سواه شريكاً لحياتي

وتصرمت الشهور بطيئة متثاقلة ، وانـا لا ازال أرزح تحت

وطأة همي ، واترمض على نـار غمي الذي جره علي حمقي وأسفر عنه تسرعي ..

وفي يوم كلبت فيه الطبيعة كلباً شديداً ، فزأرت وعربدت ، وولول الريح وصاطت العاصفة وتفتحت عيون السماء فـــأغرقت الارض والدنيا ، وردت إشارة استغاثة من الباخرة شامبليون .. فهرول الناس على اثرهـا الى الشاطىء المهجور الذي يتلاطم عليه الموج صاخباً معربداً ، فإذا بالباخرة الكبيرة جانحة على بعد قريب ، وإذا بها تتململ كأنها وحش مبقور البطن .. وهرع المسؤولون الى البحر الذي أوسع فريسته نهشاً وتمزيقاً ، فشاهدوا بـــأم أعينهم صراع الطبيعة مع الانسان .. وتجلّى لهم ضعف الانسان وعجزه ، ومقدرة الطبيعة وجبروتها .. وصحبـني شقيقي في مساء ذلك اليوم المطير الى الشاطىء المكتظ بالخلق . فما كدت أطأ الارض الرملية المبتلة حتى ارتجفت أوصالي .. ومـــا كدت أرسل الطرف الى الباخرة المنكوبة حتى وجف قلبي .. ولبثت ساعـــة انظر الى الرجال يتسابقون في التضحية بالنفس والمجازفة بالنفيس . فأعجبت بهذه الشهامة وأعجبت بهذه المروءة وتمنيت على الله ان يكلل مساعي هؤلاء الأبطال بالنجاح فيسلم المسافرون المساكين مما حاق بهم ..

بيد ان ضراوة البحر المستوحش لم تشأ أن تفارقـه فأخفقت المساعي وكتب على المسافرين ان يمضوا ليلتهم في حطام الباخرة — فيجن من يجن منهم ، ويموت خوفاً من يموت ، ويصاب بالمرض غير هؤلاء وهؤلاء ..

وشخصت العيون بغتة إلى البـاخرة ، فشاهد الناس وقلوبهم

تتقطر لوعة أشخاصاً يلقون بأنفسهم في اليم ، فيغوصون في اللجة المزبدة الممتزجة بزيت القار الأسود السام ، ويعاركون الموج الهائج المتلاطم .. وساد سكون عجيب على الحشد ، وران عليهم الصمت الرهيب . ووصلت فتاة على آخر رمق ووصل صبي في اول العمر ، ولفظ الموج رجلاً فاقد الحياة .. وبقي في اللجة رأس واحد يغوص ويختفي ، ثم يرتفع ويظهر ... ومضت الدقائق مستمهلة متوانية والانسان المتأرجح بين كفتين المتقلب بين الحياة والموت يتقدم ويتأخر ، والموج العاتي يتلاعب به والخضم المتنمر يشده الى الأعماق حتى اذا ما دنا من الشاطيء تلقفت الايدي شبحاً منهاراً سودت وجهه وبدنه الزبوت المنتشرة على صفحة الماء .. وهبت أخوات الرحمة يعملن وهرع الأطباء الى الرجل المتهافت المتداعي فأسعفوه بالعلاج اللازم حتى عاد اليه الرمق ودبت في جسده الحياة

ثم انهم بعد ان اطمأنوا عليه أوعزوا الى الممرضين ان يحملوه الى المستشفى

فصدع الرجال بالأمر وتعاونوا على حمله. ومرت ناقلة المرضى قريباً مني ، واغمضت عيني وفتحتهما .. واغمضتهما وفتحتهما وما لبثت ان ارتميت على الناقلة وانا أشهق وأزفر كمن في صدره لظاً مستعر !

ووجم الناس وتولاهم الشداه .. وسمعوني أهتف من الاعماق ، وأخاطب الرجل الذي كان مع الموت على ميعاد .. سمعوني اقول :

« انت حبيبي.. انت روحي.. انت حياتي.. فلا تنقم علي..

لا تحقد على من كانت السبب فيما أصابك من الأهوال .. واصفح ان كنت مقيماً على ودي وفيـــاً لعهدي .. وانس هفوتي .. وكن رحيماً بي .. فانا لك .. انا عبدتك .. وسأبقى ما حييت زوجتك الوفية المخلصة

❁

هكذا تزوجت .. وهكذا عشت أنا وسعيد في خفض وهناء، كأحسن ما يعيش زوجان !!

# الفهرس


| | |
|---|---|
| المقدمة | ٣ |
| الجبناء | ٥ |
| طبيبة تفقد رشدها | ١٧ |
| البحر | ٢٥ |
| حائرة | ٣٢ |
| عدل السماء | ٣٨ |
| قلب الأب | ٤٥ |
| موت عذراء | ٥٠ |
| الاديب اليائس | ٥٩ |
| الأمير ناظم | ٦٧ |
| محكمة الشعب | ٧٣ |
| كيف تزوجت | ٨٦ |

يصدر قريباً في خمسة

أجزاء متتابعة كتاب

# الحرب والسلام

تأليف

## ليو تولستوي

ترجمة

## اميل خليل بيدس

صنف تولستوي هـذا الكتاب الخالد في
خمس سنين قضاها في الدرس والبحث والتمحيص
حتى اتمه على غاية الاتقان. واستعرض فيه حياة
طائفة من الملوك والامراء والنبلاء الذين
عاصروا نابليون وحروبه. وضمنه
من أخبار الطبقة المترفة المنعمة ما لم
يأت بمثله سواه من الكتاب

# تطلب كتب المؤلف من

---

مكتبة المثنى — بغداد
مكتبة الخانجي — القاهرة
مكتبة النهضة السودانية — الخرطوم
المكتبة العمومية — المملكة الاردنية الهاشمية
مكتبة النظام — دمشق
مكتبة زبليط — طرابلس

وتوزع في جميع الاقطار العربية

بواسطة


المكتب التجاري
للطباعة والتوزيع والنشر

بيروت شارع سوريا — بناية درويش
ص. ب. رقم ( ٢٦٦٨ ) تلفون ٢٣ — ٠ — ٢